مملكة القلب والأعضاء



للعلامة الداعي إلى الله

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

مملكة

القلب والأعضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

(١٨/ ٢٠٠٧م)

الجمهورية اليمنية – صنعاء



تريم - حضرموت ت : ٤١٩٤٤١ - ٠٠٩٦٧٥، فاكس ٤١٩٤٤٢ - ٠٠٩٦٧٥

توزيـــع

دار الفقيـه للنشـر والتوزيـع

أبوظبي ت: ٦٦٧٨٩٢٠- ٠٠٩٧١٢، فاكس ٦٦٧٨٩٢١- ٠٠٩٧١٢

اليمن تريم – تلفاكس : ٤١٦٩٦٧- ٠٠٩٦٧٥

موقع الحبيب عمر بن محمد بن حفيظ على الإنترنت

www.alhabibomar.com



للعلّامة الداعي إلى الله

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم





المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على عبدِه المصطفى الأمين، سيدِنا محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن سار في هديِهِ إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن مزايا الروحِ الآدمية، وخصائص الإنسانية إنما يُتوصَّل إليها وتبرز في حيِّز الواقع بواسطة وِجهةٍ قلبيَّةٍ صادقة، ومنهجٍ قويمٍ تنطلق على ضوئه الأعضاء في توجُّهاتها وتصرفاتها. فاقتضت حكمةُ الله تبارك وتعالى إبرازَ الخيرات وحقائق الكرامة لهذا الإنسان عند استقامة قلبه وأعضائه، وحصول الأضرار وأنواع الشرور والهوان له عند خروجه عن الاستقامة قلباً وأعضاء.. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦] وقال جل جلاله: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الروم:٣٠].

وقال سبحانه وتعالى مبيِّناً وضعَ الإنسانية وما يؤول إليه أمرُ آدم وذريته إلى يوم الدين عند إخراجه لأبينا آدم ومعه منهجُ الله تعالى وهداه قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]

وأهل الإسلام اليوم في حاجة ملحَّةٍ إلى أن يُكشَف لهم عن حقائق هذه الآثار العظيمة لشئون الاستقامة القلبية واستقامة الأعضاء، وأن يُزاح عنهم ستارُ الغفلة والتغافل والإهمال والتجاهل الذي بسببه يعمهون في كسبِ ما يجلب لهم المشقَّات ويظهر فيهم الآفات.

وقد سجلنا دروساً تتعلق بهذا الشأن بعنوان (**مملكة القلب والأعضاء**) وقد قامت بنقلِها كتابةً وتفريغها من شريط التسجيل إلى الأوراق إحدى الأخوات الفاضلات جعل الله سعيَها مشكورا وعملَها مبرورا، واعتنى بها وخرَّج أحاديثها الموفق الفاضل عبد الله بن علي بن خميس، وساعد في تصحيحها صاحب الاجتهاد والوجهة الطيبة المباركة الحائز نصيباً من العلم الشرعي النافع حسين بن عوض با خميس.. فجزاهم الله خير الجزاء، وبارك الله فيما قاموا به، وجعلهم ممن يُجري على أيديهم الخيرات والمنافع لهذه الأمة الإسلامية أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

فخرجَت تلك الدروس من الإلقاء والتسجيل الصوتي إلى هذه الكتابة والمنظور العيني ليكثر ويتيسر الانتفاع بها والإفادة والاستفادة منها.

جعل الله كل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وكتب به النفعَ العظيم. وبالله التوفيق وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

الدرس الأول

الرابط بين الأعضاء والقلب

الحمد لله الملكِ الحقِّ المبين، يؤتي ملكَه من يشاء واللهُ واسعٌ عليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى إلى عبده المصطفى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦]

وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا وهادينا إليه ودالَّنا عليه محمدًا عبدُه ورسوله، المؤتمَنُ على وحيِه، المبلغُ عن الله تبارك وتعالى ما أمره بتبليغه للخلائق على أحسنِ الوجوه وأكملِها، فاستجابت القلوبُ التي سبقت لها كريمُ السوابق من حضرة الخالق جل جلاله فلبَّت النداء واتَّبعت سبيلَ الهدى.

أما بعد: فإن الحق تبارك وتعالى قد جعل في الإنسان خصوصياتٍ وميزاتٍ ميَّزه بها، وجعل لشأن مملكةِ قلبه مع أعضائه وجوارحِه قدرًا عظيمًا ومكانًا فخيماً يترتب عليه حيازةُ المُلك العظيم الكبير الدائم أو فقدانُه وخسرانُه.

فأنعِم بتلك المملكة التي يكون المُلكُ الكبير نتيجةً من نتائجها، وبئست المملكة التي تُسبِّب فواتَ المُلك الكبير، المُشار إليه بقولِ العلي الكبير في جنته: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان:٢٠].

خاصية قلب الإنسان

إن الإنسان بخاصية القلب التي آتاه الله اكتسبَت أعضاؤه وجوارحه في تصرُّفاتها وحركاتها وسكناتها منزلةً خاصةً ومكانةً رفيعةً وشأنًا خطيرا.. لذلك وجب على الإنسان أن يتدبرَ ويتفكر ويعلم أن ما يقابلُه من جميع تصرفاتِ هذه الأعضاء وتفاعلها مع الأزمان والأمكنة والأحداث، كل ذلك منوطٌ بشأن موقعِها من ذلك القلب الذي هو محلُّ نظر الرب جل جلاله وتعالى في علاه.

لقد جعل الله الكائناتِ مسبِّحاتٍ بحمده، ولكن جعل نوعًا من المعرفة به يحمله العالَمون، وهم العُقلاء من هذه الكائنات الإنس والجن والملائكة، فالخصوصية لهذا الإنسان هي تهيُّؤه وتأهُّله لمعرفة الإله الرحمن جل جلاله، الخالق الفاطر المُبدئ المُعيد الذي منه المبتدأ وإليه المَصير؛ وإن هذه الخاصية التي هي معرفةُ الله لا تكون أبدًا بشيءٍ من الجوارح، وإنما بهذا القلب الذي هو خاصية الإنسان وهو فخرُه وعزُّه إذا ظفر بمعرفة الله تبارك وتعالى وسبب نجاته وحيازتِه للملك الكبير.

أساس العلاقة بين القلب والأعضاء:

وإذا كان الأمر كذلك فجديرٌ بالإنسان أن يعلمَ العلاقةَ بين أعضائه وقلبه، وأن التصرفات المختلفة من المؤمنين ومن الكفار، من الأخيار ومن الأشرار، من المفسدين ومن المصلحين في هذا الوجود لها تعلُّقاتٌ وثيقةٌ بتلك القلوب، وعليها

يترتَّب إفسادها وإصلاحها، وخيرُها وشرُّها، كل ذلك من أثر الانسجامِ الذي يحصل بين تلك الحركة بالجارحة وبين المستقر في القلب المتعلِّق بها.

فإذا علمنا ذلك التفتَ نظرُنا إلى معرفةٍ تتعلق بالنفوس التي إذا جهلَها الإنسان فهي نتيجةٌ لحرمانه المعرفة بالإله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (الحشر:١٩-٢٠) مشيرًا إلى أن أصحابَ الجنة هم الذين ذكروا اللهَ فلم ينسوه ولم ينسوا أنفسَهم، فانضبطت حركاتُهم بالجوارح في هذه الحياة مدة التكليف، انضبطت بضابطٍ من الإيمان بالله، يوجب هذا الضابط لتلك الحركات والسكنات أن تكون العُدةَ والزادَ للمعاد والسببَ للظفر بالإسعاد والإمداد من حضرة ملكِهم وإلهِهم الملك الحق الجواد، بالنعيم المقيم والمُلك العظيم، كل ذلك حاصلٌ لهؤلاء الذين أقاموا حركاتِ جوارحِهم وسكناتِها على ضابطٍ من الاتصال بالدافع القلبي الذي لا تحصل الحركة ولا السكنة للجارحة إلا به، وهذا الدافع القلبي ينبني على ما انتهى إليه القلبُ من إدراك سرِّ وجوده، ونظرتِه إلى حكمةِ خلقهِ وحكمةِ تكوينهِ وحكمةِ وجودهِ في هذا العالم، وما انتهى إليه واقتنع به من منزلتِه ومكانتِه في هذا الوجود.

كل هذا ينبني عليه امتدادُ الرابط بين القلب وبين هذه الجوارح؛ ولأجل ذلك فإن جميع العباداتِ المتعلِّقة بالجوارح لها مقاصدُ في الشريعة منوطةٌ بالقلب،

ورُبِطت أعمالُ الطاعات بمختلف أصنافها بالنية التي منبعُها القلب، وبالدافعِ والباعث الذي يبعث على الأخذ أو الترك، يبعث على الانطلاق أو الانقباض، يبعث على القبول أو الرفض؛ لذلك كان الإيمان بالله ورسله أساسًا في تسيير حركة الإنسان، وفي أخذِه وعطائه، وفي قبولِه وردِّه، وفي رضاه وغضبه.

ولكن الغفلة السائدة التي تعمُّ كثيرًا ممن أخذ الإيمانَ مأخذًا بغير حقِّه، بغير الجدِّ الذي يليق به، ممن شهد أن الإيمان مجرد استسلامٍ باللسان أو إقرارٍ بالثوابت من اعتقاد وجود الله تبارك وتعالى وقدرته وإحاطته بالخلق وأن المرجعَ إليه، وكل ذلك يكون في قصورٍ عن أن يأخذ مكانَه من القلب فيُسيِّر هذا العبدَ على هذا الأساس فيما يقول وفيما يفعل وفيما يتحرك وفيما يسكن.

وهذه الغفلة جعلت كثيرًا من المؤمنين يتشابهون تشابهًا أكيدًا مع غير المؤمنين، ولأجل رفعِها جاءت الشرائع بهذه الأعمال وجعلت لنا في الأزمنة مواسم: كشهرِ رمضان مثلا، وموسم الحج، وموسم تجديد عام جديد، وموسم ذكريات أشهرٍ حرمٍ من بين الأشهر، ذكريات ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام، بعثته، هجرته، غزواته، إسرائه ومعراجه وغيرها.

كل هذا يشدُّ الربطَ بين تصرفات الجوارح والمستقر المستكِنِّ في القلب من حقيقة الإيمان لإزاحة غبش هذه الغفلة السائدة التي أخذ استقبالُ الناس للأزمنة والمواسم وللأعمال التي ينطلقون فيها مأخذًا عاديًّا أبعدَ البهجة، أبعدَ الحكمة،

أبعدَ الخصوصيةَ في تلك الروابط، وفي تقوية ذلك الضابط، ومن هنا وجب على المؤمن أن يدرك إدراكًا تامًّا قويًّا أنه ذو قلبٍ هو محلُّ نظرِ الرب لا اعتبار لما يتعاطاه بجوارحه إلا على حسب ما يستقر ويثبت في ذلك القلب.

حقيقة القلب وبيان مهمته

فأنت أيها الإنسان بالقلب وبالروح إنسان لا بهذه الجوارح، إذا علمتَ ذلك علمتَ أن الخصوصية لك في تهذيب النفس وتزكيتها وإدراكك لسرِّ القلبِ المودَعِ فيك، وما عنَينا بالقلب تلك القطعة من اللحم الصنوبرية الشكل بين الرئتين، والحديث عنها مما يتعلق بعلم الطب والنظر في تشريح الأعضاء، ولكن عنَينا تلك **الخصوصية السامية، والمزية العالية، الأمر الرباني الروحاني، اللطيفة الإلهية المدبِّرة المخاطَبة التي يترتب عليها الثواب والعقاب، ويترتب عليها أمرُ الخير والشر وأمرُ المحاسبة والمؤاخذة والمثوبة والجزاء**، هذا السر واللطيفة الإلهية المُعطاة لكل إنسان هي محلُّ التكليف، فمَن فقدها وفقدَ العقلَ فلا تكليفَ عليه.

إذن فليست مهمةُ هذا القلب أنه مجرد حاسةٍ تكتسب بها تمييزَ البهائم، وتمييز البهائم أن تميِّز بين ما ينفع جسدَها وما يضره وبين كثيرٍ من مصالحها الوقتيَّة الآنيَّة التي تتعلق بعيشتها المنقضية، هذه الميزة ليست ميزةَ الإنسان، بل تشاركه فيها الحيوانات المختلفة بأمر الذي قدَّر فهدى، حتى الحشرات، حتى مملكة النمل أو النحل بعجائبِ ما فيها تهتدي هدايات عجيبة إلى تمييزاتٍ غريبة في هذا الصدد،

لكن خصوصيتَك وراء ذلك، وهي أن تميز بين ما يترتب عليه ثوابٌ أبدي أو عقاب شديد، وما يوجب الخُلدَ في العقاب أو الخُلدَ في النعيم والثواب، بل حقيقة معرفتك بعظمة الإله الذي خلقك وخلقَ كلَّ شيء من حولك.

فـأنت صاحبُ مملكةٍ عظيمةٍ بهذا القلب، وبما أوتيتَ معه من هذه الجوارح والأعضاء المؤتمِرة بأمره، بحكمِ الترتيب الإلهي البديع الذي فُطر عليه الإنسان، فجديرٌ بك أن تتعرَّفَ على قلبك ومزاياه وأن تأخذَ خصوصياتِه وأن تدركَ الأمرَ المترتبَ على ذلك مِن عظيم العاقبة وخطر المصير، وبمعرفتك لهذا القلب تكون قد عرفتَ نفسك وعرفت ربَّك جل جلاله، وتتهيأ بذلك لاستقبال المواسم كرمضان المبارك استقبالاً حسنًا، ولتتعاملَ التعامل اللائق، تعامل المخلوق الذي يدرك أن له خالقاً من فوقه يستعد للقائه..

جعلنا الله كذلك، وهيأنا لحُسنِ المصير، وكريم اللقاء مع الرب الأعلى على خيرِ ما يلتقي به مَن رضيَ عنهم وارتضاهم وأرضاهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني

العبرة في أعمال الجوارح بأحوال القلوب

الحمد لله الذي يبسط الفضلَ للمُقبل عليه، والمتوجهِ إليه.. نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدَنا ونبيَّنا وقرة أعيُنِنا محمداً عبده ورسوله، الهادي إليه، والدالُّ عليه.. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تأدب بآدابه، وسارَ في دربه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ انطلاق الإنسان في هذا العالَمَ وهو داخل في حيِّز التكليف الذي هو حقيقة التشريف من الحق تبارك وتعالى له.. وهو أداء أمانةٍ عَجزَت عن حملِها السماواتُ والأرضُ، فمؤدِّيها أعظمُ شأناً من السماوات والأرض.. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فإذا ضَيَّعَ حقَّ هذه الأمانةِ ولم يعرف التخصيصَ بالميزة والمكانة من ربه تبارك وتعالى، واختار أن يهينَ نفسَه ويُذِلَّها بمخالفة مَن خلقَها وأوجدَها سبحانه وتعالى، فإنه ينحطُّ عن رتبة البهائم والحيوانات، قال تعالى في الذين غفلوا عن هذه الحقيقة في الوجود ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ

* BALANCE : 'IRADA = BODY DHAWQ = SOUL - CAN'T HAVE A SOUL W/O BODY

* SHARIAH, TARIQA, HAQIQA

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وانظر إلى الربط بين القلوب والأبصار والأسماع في قوله تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.. وذلك سرُّ الصلة بين الأعضاء وهذا القلب، وذلك ما تقدمت الإشارة إليه في الدرس السابق.

دلالة الربط بين القلب والجوارح

في هذا الربط الإلهي بين السمع والبصر والقلب الإشارةُ لكل سامعٍ ومبصرٍ إلى وجوب التنبه لخطر السمع والبصر، وقد جمع الحق عز وجل بين الثلاثة فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولَمَّا كان في معنى السمع والبصر إشعارٌ بالإدراك واليقظة والتنبُّه، جُعِل البابان إلى القلبِ السمع والبصر؛ وجُعِل تأثيرُ ما يصل منهما إلى القلب قويًّا عليه..

لذلك وجب على المؤمن – وقد أدرك سرَّ الربط بين قلبه وجوارحه- أن لا يغفل قط عن تقويم القلب على الوجه المرضي الذي به تنضبط الجوارح في تصرُّفاتها فيسلم مِن حركةٍ أو سكونٍ تتحول إلى حسرة وندامة يوم القيامة، وبئست الندامة ندامة يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] .

تقويم تصرفات المسلم

أيها المتحرك، أيها الناظر، أيها السامع، أيها الماشي، أيها الآخِذ، أيها الرافض، أيها المتصرِّف بأي أنواع التصرف وأنت في دائرة التكليف في هذه الحياة: قوِّم قلبَك على الوجه الذي به يحسُن تصرُّفك وإلا تعرضتَ للحسرة والندامة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم: ٣٩).

هذا التقويم يأتي بحُسن النظر في الجنود التي جعلها الله لهذا القلب. وقد سلَّط الله على الإنسان غضباً وشهوة، وجعل الحكمةَ في ذلك أن يميز بين الفريقين، بين من يستعملها فيما يعود بالنفع ويوجب السعادة، ومن يرسلها حيث الهوى وحيث لا يفرِّق بين حال المصير للحركة والأخرى والسكنة والأخرى.

فيا أيها العاقل: جعل الله الغضبَ فِيكَ لتأخذ مجالَك في التكليف بمجاهدته، وذلك بأنْ تجعله خاضعاً مُنقاداً لأمر العقل والشرع، فتغضب في الوقت الذي دعاك فيه الحق إلى أن تغضب، فيكون غضبك لله الذي خلقك. كذلك جاء في سيرة نبيِّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يغضب لله، ويرضى لله.

وبهذا الغضب تقوم الشجاعة، وبه تُحمى الحدود والحرمات والأعراض والأموال، وبه تُهذَّب النفس الشرهة، وتُعدَّل الشهوة وتُخرج عن غيِّها وعن

غلَبتها إلى اعتدالها واستقامتها. فالغضب إذا تقوَّم واستقر على الميزان أثمرَ صفاتٍ صالحةً عند الإنسان وصيَّره إنساناً يُحسن التصرف، إنساناً ينتهض لأداء المهمة.

وإذا خرج الغضب عن اعتداله إما إلى الإفراط أو إلى التفريط حصلت الصفاتُ السيئة التي تفقد الإنسانَ حقيقةَ إنسانيته وعظمةَ مكانته، فيتحول بالإفراط فيه إلى متهوِّرٍ أو إلى متربِّصٍ مؤذٍ كأنه سبُعٍ ضارٍ يريد الانتقامَ مِن كل مَن لم يوافقه على شيء من أهوائه أو من مراداته.. فيُحدث بذلك فوضى واضطراباً في المجتمع.

وإذا فُقِدت أصلاً ونالَها التفريط حصل من ذلك دياثة، وحصل من ذلك سخافة، وحصل من ذلك فتحُ الأبواب لاعتداء المعتدي وظُلم الظالم، بل ولضياع القيم والمبادئ.. إذن فلابد من وجود الغضب لكن مقوَّماً معتدلاً.

تقويم أعمال الجوارح على الرابطة الصحيحة بالقلب

يُتوصل إلى تقويم الصفات بوسائل متعددة، ومنها ما سبقت الإشارة إليه من أنواع العبادات المفروضة كصيام رمضان، وهو أمرٌ متصل بالتهذيب للإنسان إذا صدر الصوم من دوافع قلبٍ آمن، ولذا جاء الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وذُكِرَت النتيجة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ كما ورد في الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فينبغي أن يكون الصيام بدافع الإيمان، وأن يكون للصوم في ذات الإنسان نتيجة،

* EFFECT ON HEART

وهي أن يثبُت على التقوى، فيعتدل غضبُه، وتعتدل شهوتُه كذلك؛ ولذلك جاء في الحديث: ((**يدع طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلي**))[١].

كما نقرأ عن الصلاة قولَه تعالى:﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] نحن لا نرى شيئاً ظاهراً في الصلاة يزجرنا عن الفحشاء أو المنكر، لكن إذا جاء الدافع للصلاة من القلب المؤمن بمن نصلي له أثمر ذلك مراقبةً وتقويماً لجهاز المراقبة وسط الفؤاد، وأثمر تعشُّقاً من المصلِّي في قلبه للقرب ممن يصلي له. فيكره ما يُبعده عنه من المنكرات والفواحش والآفات والمحرمات.

كل ذلك يوصلنا إلى الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من الناس، وهي أن العبادات بجوارحنا مربوطةٌ بشئون قلوبنا.. فكأن المقصود الأعظم هو هذا القلب، فليست المسألة عملَ جوارح ولو وصل إلى مستوى بذلِ الروح، لكن القصد هو الأمر المستقر في القلب ما هو!؟

كل ذلك يدلُّنا على أنه لابد من تقويم أعمال الجوارح على الرابطة الصحيحة بالقلب، بأن يكون الدافعُ دافعَ صدقٍ قائماً على الإخلاص للرب جل جلاله.. لذا نقرأ في الحديث: ((**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**))[٢]،

---

١) رواه أحمد وابن أبي شيبة.

٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان- باب: صوم رمضان احتسابا من الإيمان (الحديث: ٣٨) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان (الحديث: ٧٦٠).

وقوله أيضا «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[١] فما أطلق رسول الله لفظ الصيام ولا القيام، وما قال «**إيماناً واحتساباً**» إلا لعظمة حُسنِ تعليمه، ولعظمة قوةِ مداركه ومفاهيمه صلى الله وسلم عليه وعلى آله.. فهو المؤتمن على التزكية للإنسان كما نقرأ في آيات القرآن الكريم: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ (الجمعة: ٢). فلهذا نقرأ قوله صلى الله عليه وسلم: «**إيماناً واحتساباً**» ليربطنا بالانبعاث الصحيح عند إقبالنا على الصوم أو على القيام للصلاة.. وكذلك يأتي في بقية الأعمال الصالحات.

إذن هناك أمرٌ غائبٌ عن أذهان كثيرٍ من المسلمين، **وهو ربطُ طاعات الجوارح بمعانٍ تحلُّ في القلوب، فيجب أن نتنبَّه له، وأن نذَّكر، ونستشعر اعتبارَه لدى الذي نعبده ونعمل له، وهو الله جل جلاله ولا إله غيره.**

ثبَّتنا اللهُ على الإخلاصِ لوجهه الكريم، والصدقِ معه، وكسا أعمالَ جوارحنا بأنوارِ صفاء القلوب وصدقِها معه تعالى.

وصلى الله على نبيِّه المصطفى سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه البخاري في كتاب صلاة التراويح- باب: فضل من قام رمضان (الحديث: ١٩٠٤)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين- باب: الترغيب في قيام رمضان (الحديث: ٧٥٩).

الدرس الثالث

اللسان وآثاره

الحمد لله مقلِّبِ القلوب يثبِّت قلبَ من يشاء على ما يحب ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، قال لنا في خبره «**ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب**»[١].. اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد الذي أحييتَ به قلوبَ مَنْ آمنَ واتَّبعه واهتدى بهداه، وعلى آله وأصحابه ومن سار في سبيله إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ الحقَّ تبارك وتعالى جعل للقول الصادر من الإنسان دافعًا من القلب وأثرًا عائدًا إلى القلب، وذلك في مختلف الطاعات والمعاصي.. فإنَّ أعمالَ الجوارح مصدرُها من القلوب، ولكن بعد صدورها على الجوارح تعود منها آثارٌ منعكسة إلى القلوب؛ فالطاعة إذا أقبل عليها المؤمن مخلصاً لوجه ربه سواء كانت قراءةً أو صلاةً أو صدقةً أو صوماً أو حجًّا أو عمرةً أو صلةً لرحم أو غيرها.. يكون قيامُه بها بدافعٍ من القلب مرضيٍّ لله، فعندما يفعل ذلك الفعل من أنواع الطاعات والعبادات يصدر معه نورٌ فيعود إلى القلب منه نورٌ فيزيد القلبَ نوراً.

١) رواه البخاري في كتاب الإيمان- باب: فضل من استبرأ لدينه (الحديث: ١٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة- باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (الحديث:١٥٩٩).

وكل معصية أيضاً تصدر من القلب، فأول المعاصي خَطْرَةٌ تخطر على القلب، فإذا كان القلب غيرَ مقوَّمٍ على ميزانِ المراقبة للحق الأكبر وعلى التصديق الجازم بما جاء عن خيرِ البشر، ينساق مع الخاطر السيئ، ويتحول معه إلى عزم ثم يفعل المعصية فتصدر منها ظلمة تعود إلى القلب فتزداد بها ظلمةُ القلب، ومن هنا جاء في الأثر: ((**من قارفَ ذنباً فارقَه عقلٌ لا يعود إليه أبداً**))[1]. وذلك لأن غايته أن يُتبع تلك السيئةَ حسنةً فتمحوها، فلو جاءت هذه الحسنةُ دون سيئةٍ قبلها لازداد بها القلب إشراقاً، فلما وجدتِ السيئةَ قبلها لم يزدد إشراقاً وإنما كان غايتُها أن تطهِّر القلبَ من الأثر الذي علِق به من المعصية السابقة فكان ذلك نقصاً على هذا الإنسان وقصوراً في العقل لا يعود إليه. فأَقوالُ الإنسانِ لها ارتباطٌ قويٌّ بما يكون في القلب وتأثيرٌ عليه أيضا.

أثر العبادات في تقويم القول

الرابطة بين العبادات وبين تقويم القول قوية، فنجد في مثل الصلاة ضبطاً للِّسان، فأي خطاب لمخلوقٍ يُبطل الصلاة، يُستثنى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه يُخاطَب بالسلام في الصلاة، ولا تصح إلا بذلك الخطاب بقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. وقد قال أصحابه: كان صلى الله عليه وسلم يعلِّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن[2]، وفي كل روايات التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. فمُنِع الإنسان في

---

١) أورده الإمام الغزالي في الإحياء، وقال العراقي: لم أجد له أصلا.

٢) رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس في كتاب الصلاة- باب التشهد في الصلاة (الحديث: ٤٠٣).

الصلاة من الكلام أصلاً مع أي كائن من الكائنات وأي مخلوق من المخلوقات.. ((**إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس**))[1].

ونجد في الصوم أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((**من لم يدع قولَ الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامَه وشرابَه**))[2].. فبيَّن أنه إنْ لم يقم الصوم على أساسٍ من القلب متين في تقوى رب العالمين، لم يمنع صاحبَه من أن يقول الزور وهو كل قولٍ مخالفٍ للحق.. وكل قولٍ حرَّمته الشريعة. وفي الحديث الآخر: ((**الصوم جُنَّة-وقاية- فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يفسق فإنْ أحدٌ سابَّه أو شاتمه فليقل إني صائم**))[3].

ومن هنا وجدتَ أن الذي لا يبالي بما يجري على لسانه من الألفاظ يتعرض لفقدان جميع جواهر العبادات وروحانيَّتها، فلا يبقى معه إلا صورتها فلا تفيده، ولو تأملنا قمةَ الأعمال الصالحة وهو الجهاد في سبيل الله لوجدنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يقول للذي قال عن قتيلٍ قُتِل في المعركة مع الكفار المحاربين المعاندين المعتدين: {هنيئاً له الجنة} فيقول رسول الله: ((**وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه**))[4] لعل عنده داء الإرسال للِّسان بغير قيد، داء الاسترسال في الكلام بغير مراقبة.. هذه مصيبة من المصائب، كم يُبتلى بها الناس ويقعون فيها!؟ ويسمع الابنُ أو البنتُ من الأب أو الأم أو أحدٍ يجالسه كلمةً بذيئةً

---

١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحة (الحديث: ٥٣٧).

٢) رواه البخاري في كتاب الصوم- باب من لم يدع قول الزور والعمل به (الحديث: ١٨٠٤)، والنسائي والبيهقي.

٣) رواه أحمد عن أبي هريرة.

٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فتقرُّ عندهم في قلوبهم ويبقى أثرها فيتلفظون بها كثيراً في حياتهم، وتكون العهدة والمسؤولية على ذلك الأب أو تلك الأم التي غفلت وما علمت أن أغلى شيء عند الإنسان قلبُه، وأن هذه الأمانة - قلب هذا الصبي- مُطَوَّقة بها عنقها ومطوق به عنق أبيه، فما شعروا بذلك وخانوا الأمانة في قلوب صبيانهم وتكلموا أو فعلوا أفعالاً سيئة أمامهم أثَّرتْ في هذه القلوب فأفسدتها، فثبت الفساد في الناشئ إلى آخر عمرِه والعياذ بالله تبارك وتعالى.

ومن هنا نعلم وجوب التنبه لما يُقال ولما يدور على ألسنتنا عند أطفالنا وأُسَرِنا وحيث ما كنا، ونجد الأمر صريحاً بذلك من الله في قرآنه: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ**﴾ [الإسراء: ٥٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا** ﴾ [البقرة: ٨٣] أَمَرَنا أن نقول للناس حُسنا.. ﴿ **حُسۡنًا** ﴾ تأمل!! جاء بالمصدر، ولم يقل (حَسَنا)، يعني أُطلب من الكلمة ما تُمَثِّل حقيقةَ الجمال والحُسن، قُلْها ليكن قولك حُسنا لا إحسانا. وفي الآية الأخرى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ**﴾ فإذا كانت كلمتان كلتاهما حسنة فاطلب التي هي أحسن.

تقويم اللسان من أسس الإيمان

هذه التوجيهات العجيبة غفلتْ عنها قلوبُ كثيرٍ من المؤمنين، وما ذاك إلا لبطلان تقويم القلوب على مقتضى الإيمان، وصار هذا الفصل بين الجوارح والقلوب مؤذناً بفصلٍ للذات الإنسانية عن باريها وعن حقيقة القرب من مولاها؛ ومن هنا جاء الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو**

ليصمت))[١].. متى جاز لك أن تستخفَّ بهيبةِ وعظمةِ الذي أعطاك المَلَكةَ على الصمت لتنطلق مع مرادكَ فيما تقول وقد خالفتَه وعصيتَه وخرجتَ عن أمره!؟

﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣] اجعل قولك يمثِّل الجمال فتعشقهُ القلوب والأرواح، ويفرح به السامع له.

فلنأخذ من دروس الصلاة ودروس الصوم هذا المعنى لنقوِّم الألسن ونتجنَّب الكلماتِ التي جاء التحذير منها، إلى حدِّ أن قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**))[٢]، وفي رواية ((**إن الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوِي بها سبعينَ خريفاً في النارِ**))[٣]..

فيجب ونحن أمام المعاملة مع الحق تبارك وتعالى في عهدة التكليف أن نراعيَ الكلمات الصادرة منَّا، ونتوِّج صيامَنا بالقول الحسن والاجتناب للقول السيئ؛ فإنه يُذهِب ثوابَ الصوم على الإنسان كذبةٌ أو غيبةٌ أو نميمةٌ أو حلفٌ كذباً.. إلى غير ذلك ((**من لم يدع قولَ الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامَه وشرابَه**)) فلنأخذ الدروس من أنواع العبادات فيما يتعلق باللسان.

---

١) رواه البخاري في كتاب الأدب- باب:من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه (الحديث: ٥٦٧٢)، ومسلم في الإيمان- باب: الحث على إكرام الجار والضيف (الحديث: ٤٧).

٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق- باب: حفظ اللسان (الحديث: ٦١١٣).

٣) رواه الترمذي في أبواب الزهدِ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم- باب فيمن تكلم بالكلمة ليضحكَ النَّاس (الحديث: ٢٤١٦).

أثر استقامة اللسان على الأعضاء

لما كان تأثير اللسان قويًا جاء في الخبر أن الأعضاءَ تناشد اللسانَ كل يوم تقول له: ((**اتقِ الله فينا فإنما نحن بكَ إذا استقمتَ استقمنا وإذا اعوججتَ اعوججنا**))[١]. ولما قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء: ٥٣]؛ ذكر علَّةً كبيرةً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إذا حادُوا عن القولِ الحسنِ وتكلموا بغير الأحسن.. يستغلُّها الشيطان فرصة، فَهُم يفتحون ميادين للشيطان، ليدخل بينهم من عدم انتباههم من القول؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: ((**والكلمة الطيبة صدقة**))[٢]؛ فيجب علينا أن نحمل هذه الصدقات إلى من يتحدث معنا ونتحدث معه، وأن نعلم فضيلةَ القول الحسن. ونتوجه إلى الرب تبارك وتعالى أن يعطينا من الإيمان ما نقوى به على ضبطِ ألسنتِنا.. وقد قال بعض العارفين: ما رأيتُ تقوى إنسانٍ في لسانه إلا رأيتُ أثر ذلك على جميع أحواله وشؤونه.

اللهم قوِّم ألسنتَنا وأنطِقها بذكرك وبما ينفع الناس، وأعِذنا من كلماتٍ تتحول إلى عذاب مؤلم لا يُطاق يا مَلِكُ يا خلاق يا ربَّ العالمين.

وصلى الله على المصطفى محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه الترمذي في أبواب الزهد- باب ما جاء في حفظ اللسان (الحديث:٢٥١٨)

٢) رواه البخاري في كتاب الأدب- باب: طيب الكلام (الحديث: ٢٨٢٧)، ومسلم في كتاب الزكاة- باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (الحديث: ١٠٠٩).

الدرس الرابع:

اللسان وبناء الفرد وا لمجتمع

الحمد لله الملك الحقِّ المبين، نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، قولُه الحق وله الملك يوم يُنفخ في الصور؛ ونشهد أنَّ سيدنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله، مَن جاء عن الحق بالحق والنور المبين، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار في سبيله إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ هذه المملكة العظيمة التي جُعلتْ للإنسان قلباً وجسداً باحتوائها على واسع الأسرار التي يترتب عليها الجزاء والاستقرار إما في الجنة وإما في النار جديرةٌ بأنْ يُحْسَن التأملُ فيها والنظر في شؤونها. وقد انتهينا إلى ذكرِ علاقةٍ بين اللسان والقلب، وأنَّ استقامة اللسان مؤثِّرة على جميع الأعضاء، راجع أثرُها أيضاً إلى القلب؛ ومن هنا حرص أهل التربية على أن يعوِّدوا ألسنةَ أولادهم على النطقَ باسم الله من أوَّل ما يتهيأ لهم النطق بالألسن، ويردِّدون عليهم اسم الحق تبارك وتعالى لفظ الجلالة (الله) رجاء أن تتحلَّى ألسنتُهم أول ما تنطق باسم الله لتكون تلك الألسن ناشئةً على نورانية الصلة بالإله الخلاَّق سبحانه وتعالى.

أثر اللسان في العلاقة بين الفرد وا لمجتمع

كم من أثرٍ عظيم لِـما يصدر من اللسان على الإنسان وعلى ما حواليه؛ ولأجل ذلك وجدنا الإرشادات القرآنية -كما تعرضنا لذلك- تأمرنا بأن نقول الحسنى،

وأن نقول التي هي أحسن، وبذلك تتجنب الأُسر كثيراً من أسباب الشتات وأسباب التباعد وتقطُّعُ الصلات والنِزاعات التي تدور، باختيار اللفظ الحسن وتعويد اللسان أن يقول ما هو أجمل، وتربية الأطفال على ذلك وتنشئتهم على أن لا يسمعوا القولَ السيئ، وهذا هو الأصل في التربية والبناء، وأما ما يلحق ذلك من التحذير من تجنُّب كلمات السوء فإنه يأتي بعد هذا الأساس.

فالأصل والأساس أنْ يُجَنَّبَ استماع اللغو وكلام السوء، لأجل ذلك وجدنا الأمرَ في القرآن بالإعراض عن الذين يخوضون في آيات الله تبارك وتعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] أي بالجلوس معهم والاستماع إليهم تكونوا مثلَهم في اسودادِ القلب بالرضا بالقول المسخط لله سبحانه وتعالى.

ومن هنا ندرك أنَّ استماع الألفاظ السيئة سواءً جاء عبر كمبيوتر أو عبر شاشة التلفزيون أو عبر إذاعة أو عبر شريط الكاسيت أو CD أو أي وسيلة من الوسائل له تأثير قوي. وهذا أيضاً يبيِّن لنا ما تجاهلَه المسلمون من أسس التربية التي يربون عليها الأسر والأبناء في إقامة هذه المملكة العظيمة التي لأصحابها البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة مملكة صلاح القلب والأعضاء.

فشأن اللسان شأن عظيم، واستماع الأذن إلى الكلمة البذيئة له أثرٌ في القلب ربما عَسُرَ زواله. لأجل ذلك كله حرص مَن حرص مِن أئمة الإسلام على الاعتناء بشأن المحافظة على الناشئة والأطفال من استماع الكلمات السيئة. ومنهم الذين راعَوا أولادَهم ألا يذهبوا إلى مواطن عامة يسمعون فيها تلك الكلمة والأخرى.

إنما نعرض هذا **لينبعثَ من الضمير إدراكُ واجباتٍ ومهماتٍ تتعلق بالمبدأ، بل تتعلق بالاعتناء بالاعتلاء لشأن هذه الذات الإنسانية، فقد سَرَتْ الغفلة إلى كثيرٍ من العقول والقلوب عنها مع صراحةِ التوجيهات الإلهية والنبوية في هذا المجال العظيم، لندرك الفارق الكبير بين ذاك الاعتناء وهذا الانحطاط الذي حصل في الأمة** فصارت تُسمع الألفاظ البذيئة من صغار السن!!

كل ذلك من تحكُّم الغفلة التي حلَّت بقلوب كثيرٍ من أهل هذه الملة، فلم يبالوا بإرسال الكلمات، ولم يبالوا بأن يستمعَ أبناؤهم أو بناتهم من الكلام ما يشحن القلوب ظلمةً أو يملأها قسوةً أو يحول بينهم وبين حسن الاستماع لأقوال الحق سبحانه وتعالى.

استشعار المحاسبة على الأقوال

* على أهل الملة أن يحضُر عند بالِ كل واحد منهم أن هذا اللسان وما يصدر منه سيكون محلَّ خطاب للإله الحق تبارك وتعالى إذا كلَّمه الله يوم القيامة. فإنَّ الذي أكثرَ إساءةَ الكلامَ لا يصلح لأن يكلِّمه الملك العلام جل جلاله، كما قال تعالى عن

أقوام: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧] ومَن استشعر أنه سيُخاطبُ الحقَّ تبارك وتعالى ليس بينه وبينه ترجمان يُحسن الإعدادَ للِّسان لكي يُحسن الجوابَ إذا سأله الرحمن، وأن يُحسن الخطاب للملك الديَّان بما استعمل فيه اللسان مما يرضي هذا الرب، وبما حمى به لسانه عما يوجب الغضب أو يوجب السخط.

فيا مَن يهيئ لسانَه للخطاب مع الحق جل جلاله ثم يهيِّئها للمخاطبة مع النبيِّين والمرسلين والصدِّيقين والشهداء والصالحين جديرٌ بك أن تعرف الحرمةَ العظيمةَ التي تحيط بلسانك. فعليك أنْ تهتمَّ بضبطِ ألفاظ اللسان وهذه الكلمات، ثم إذا حُدِّثتَ أنَّ أبا بكر الصديق الذي تربى على يدِ المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم كان يحمل الحجرة فيضعها في فيه خشيةَ أن يتكلم بما لا يرضي باريه، أو بما لا يجد فيه المثوبة عند مولاه تعالى.. لا تعجب من ذلك فإنك لو أدركتَ ما يترتب على هذه الأقوال لعلمتَ أنَّ اتخاذ المسلك على هذا المنوال حقٌّ ينتهجه أرباب الفضل من الذين أدركوا عظمة المآل وعظمة خطاب ذي الجلال سبحانه وتعالى.

وأنت ترى أن الناسَ في محاسبةٍ أخرى عندما يُوجَّه الخطاب إلى جهات يعلمون أنها ستَتتبَّع الألفاظ، وأنه سيترتب على الغلط والخطأ في هذا اللفظِ أمورٌ كبيرة من مقاطعات أو مخاصمات أو مؤاخذات أو تصنيفات، سيصنفونه أنه تبع تلك الحركة أو ذاك المكان أو شيء من الاعتبارات السياسية مثلاً؛ تجد الاهتمامَ

بوَزن الكلمة والانتباه منها، حتى يتجنَّب الكثيرُ أن يقول الكلمة ارتجالاً، ويجب أن يقرأها قراءةً بعد أن يكتبها ويفحصها ويبالغ في فحص كل كلمة.. هذا من أجل المؤاخذة والمطالبة لشيء من أجهزة أهل الأرض، فمن أدرك أن المؤاخذة من ربِّ الأرض والسماء أكبر وأجل علمَ أن المسلك الأمثل هو ما سلكَه أولئك الفضلاء من الذين انتبهوا لما يصدر من ألفاظهم خشية أنْ تزِلَّ بهم ألسنتُهم فتزل بهم أقدامُهم.

ومَن كَثُر كلامه بغير ما يعنيه كثر سَقَطُه، ومن كثر سَقَطُه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به.. لأجل ذلك كله وجب اختيار الكلمة الطيبة التي هي الصدقة التي تُحْمَلُ إلى القلوب وتؤثر فيها.

الاهتمام بالقول الحسن وثماره

يجب أنْ يعوَّد الأطفالُ والنساءُ والرجالُ القولَ الحسن وقولَ الحُسن كما ذكر الله تبارك وتعالى، وأنْ يأخذ مجاله في أفكارنا ومجاله في وِجْهاتنا معشر الذين آمنا بالله وبما جاء عنه وآمنا بالمصير إليه والسؤال منه لنا تبارك وتعالى، ولنتذكر ما أَوْرد لنا في الكتاب من قوله جل جلاله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

وكما أنه يمكننا اكتساب الفضائل والدرجات العلى بواسطة هذا اللسان وإطلاقه بالقرآن وأخبار سيد الأكوان وأخبار الأنبياء والمرسلين والصالحين

وقصصهم التي فيها العبرُ لأولي الألباب. إن الذين يدَّعون معالجات الحياة اجتماعياً أو اقتصادياً أو فكرياً يقصُّون علينا قصصاً كثيرة ويعرضونها بِصُوَرٍ متعددة.. ولقد اختار رب الأرض والسماء أن يقصَّ هذا القصص الذي بثَّه في القرآن عن الأنبياء وعن الأولياء وعن معانديهم وما حلَّ بهم.. فما منزلة هذا القصص الإلهي وما واقعُه في حياتنا وفي ما يُنْشَر في ديارنا وفيما يدور فيما بيننا صغاراً وكباراً، أُسراً ومجتمعات!؟ فيجب الاعتناء بشأن ما قصَّ الله تبارك وتعالى.

كما أنه بواسطة اللسان يتحقق كثرةُ ذكرِ الرحمن الذي مَن أكثر مِن ذكره كان مذكوراً لديه، ومُعَرَّضاً لأن تُحطَّ عنه خطيئاته، وأنْ يرافق ركبَ الأتقياء الأخيار ، قال تعالى:﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ثم أنواع الإرشادات في مجالات الحياة بما ينفع وبما يخدم الأصل والأساس من الاستقامة على منهج الحق تبارك وتعالى كل ذلك يمكن القيام به بواسطة هذا اللسان، فما أحرى الإنسان أن يعرف قيمةَ اللسان وأن يتهيأ للميزان.

اللهم ثبِّتنا على الحق فيما نقول وثبِّتنا على الحق فيما نفعل وثبِّتنا على الحق فيما نعتقد وبارك اللهم لنا فيما نقول وفيما نتحرز من القول فيه حتى نستقيم على مرضاتك وحتى تُلْهِمَنا القول بـ (لا إله إلا الله) عند الوفاة يا حي يا قيوم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس :

مجال السمع ونتائجه

الحمد لله الولي الديَّان، نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، جامع الخلق يومَ وضعِ الميزان، ونشهد أنَّ سيدنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله، المُنْزَل عليه القرآن، والمبلِّغ عن الله تبارك وتعالى ما به سعادة الإنسان، صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه ومن سار في سبيله بإحسان.

أما بعد: فإنَّ الإنسان - في مملكته الإنسانية- يمكنه العيشُ الهنيء في أضواء التوجيهات الإلهية، وتقويم القلب الذي هو محلُّ معرفةِ الرب على المسلك الذي تنتظم به الأعضاء كلها في منهاج الإله بما يوجب السعادةَ في الحياة وعند الوفاة وبعد الوفاة، لكل منتهجٍ في ذلك المنهاج، مستضيءٍ بأنوار ذلك السراج المبعوث رحمةً من الله للعالمين صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أهمية السمع للإنسان

من أجزاء هذه المملكة الكبيرة الواسعة {جزء السمع} الذي جعله الله آيةً من الآيات، وجعله سبحانه وتعالى علامةً دالَّةً على بديع قدرته وعظيم تدبيره، ورتَّب سبحانه وتعالى لهذا السمع بخلاياه الألوف والملايين وصول المعنى إلى الذهن والبال، وترجمة ذلك، وإصدار التوجيهات للأعضاء حَسَبَ ما يقضيه ذلك القلب أو ذلك العقل الذي انتهى إليه ذلك الصوت الذي سمعه.

وكما أنه يعظم خطرُ اللسان فيعظم خطر الاستماع كذلك؛ لأن الاستماع هو المَنْبَت الذي يُنْبِتُ في القلب الخير أو الشر؛ لأجل ذلك نقرأ البشارة موجَّهةً من قِبل الخالق للسامع للحق المهتدي به، يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]. فالسمع في مملكة الإنسان -إذا وُهِبَهُ الإنسان- طاقةٌ يمكن أنْ يحقِّق بها المزايا وأنْ يرقى بها مراقي خيار البرايا.

فيا مَن أُكرِم بالسمع وهو لا يملك أنْ يزيده ولا أنْ ينقصه - وهو موهبة الله له، وليس له إلا التسبب في التطبُّب في وقت الحاجة لذلك على حسب ما يقضي له الحق وييسر له من الأسباب- اتقِ الله في السمع وانظر إلى ماذا تستمع؟ وماذا تُسمِع جلساءك، أصدقاءك، أبناءك، بناتك، أسرتك.. ماذا تُسمِعهم؟ فإن السميع البصير جل جلاله يرقب ما تستمع إليه وما تُسمِعُهُ لعباده.

وإنَّ لهذه الأصواتِ والكلماتِ تأثيراتٍ قوياتٍ على القناعات، على الأفكار، على النظر إلى الأشياء، على اختيارات الإنسان.. فحينئذٍ يجب أنْ تصون سمعَك كما تصون لسانَك عن الكلام البذيء، فإنك عند استماع الإثم تكون كقائله، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].. قال الشاعر:

وسمعَك صُن عن كـلام القبيح   كـصونِ اللـسان عــن النطـق بِـهْ
فإنــك عنــد اسـتماع القبـيح   تكـــون كقائلـــه فانتبِـــهْ

الحرص على استماع الخير وتجنُّب سواه

مما تقدَّم علمنا وجوبَ ما نقوم به من أدوار في الديار وغيرها مما نهيِّئ له أسماعَنا، وما نزفُّه إلى أسماع مَن وُلِّينا عليهم، وإلى أسماع مَن يجالسنا. ومَن كان يترجى أنْ يسمع مِن الحق تبارك وتعالى كلامَ الرضا عند اللقاء فحقٌّ له ألا يستمع إلا إلى ما يُرضي ربَّه سبحانه وتعالى؛ لأجل ذلك وجب على المستمع عند استماع النميمة أنْ يردَّ على النمَّام الناقل لكلام السوء، وأنْ لا يصدِّقه، وأنْ يزجره، وأنْ لا يَحمِله قولُه على التتبُّع، وأن يحافظ على قلبه من حلول شيء فيه بسببه.

ولَمَّا وَشَى بعض الناس إلى عمر بن عبد العزيز ببعض الرَّعَايَا، قال له: يا هذا، إنْ شئتَ نظرنا في أمرك فإنْ كنتَ كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] وإنْ كنتَ صادقاً فأنت مِن أهل هذه الآية: ﴿ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١١-١٣] وإنْ شئتَ عفونا عنك هذه المرة ولا تعود. قال: بل اُعفُ عني ولا أعود يا أمير المؤمنين. كذلك لَمَّا استُقبل الكلام من قِبَل الأذن التي استمعتِ استقبال المؤمن، استقبال من يُحكِّم شرعَ الله تبارك وتعالى، من يعمل بمنهج الحق جل وعلا، من أيقنَ بما أمره الله به وبما وعد وأوعد جل جلاله. فلَمَّا جاء الاستقبال بهذه الصورة جاء الرد بهذه الطريقة وبهذه الكيفية، وبذلك تتقفَّل أبواب سعاية الناس على بعضهم أو وشايتهم بعضهم البعض.

لكن وجود الآذان المستمِعة للَّغو، وللفضول، وللنميمة؛ يوسِّع مجال هذه المعاصي، أو قُل هذه السباع المفترسة، والأسلحة الفتَّاكة بالمجتمع وتماسكِه، وبالإيمان وقوَّته في القلب.. تنتشر عندما تجد الآذان صاغيةً لمثل ذاك السوء أو لغيبة الناس بعضهم البعض، ولذا وجدنا سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ينزِّه سمعَه عن أنْ يستمع إلى آلة محرمة -وهي المزمار- ويمشي مع نافع مولاه وعندما سمع الصوت وضع أصبعيه على أذنيه حتى لا يسمع، وعدل عن الطريق، وجعل يقول لمولاه: أَتَسْمَع؟ فيقول: نعم. فيُبقي الأصابع في أذنيه حتى قال لا أسمع فأخرجهما ورجع إلى الطريق، ثم قال: هكذا رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يصنع[1]، فاختار هذا الاختيار وهذا الرقيَّ لنفسه رجاءَ استماعٍ إلى ما يسرُّه من قِبَلِ مولاه وإلى ما يسرُّ قلبَه مما أعَدَّ الله من النغمات وجميل الأصوات في الجنات للذين صانوا أسماعَهم عن المحرمات في هذه الحياة القصيرة.

وبذلك كله نجد خطرَ السمع، وأنه قد يتعرَّض الإنسان بشيء من استماعاته غير المشروعة لنوعٍ من العذاب حدَّث عنه صاحب الرسالة وهو صبُّ الآنك في أذنيه، والآنك هو الرصاص المذاب بالنار فيُصَب في آذان الذين ارتكبوا بعض الجرائم فيما يتعلق بالسمع، ومنهم الذي يستمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون[2].

---

١) رواه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي الدنيا في الورع.

٢) رواه البخاري في كتاب التعبير - باب: من كذب في حلمه (الحديث: ٦٦٣٥). ونص الحديث: من تحلَّم بحلم لم يره كلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون أو يفرون منه صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صوَّر صورةً عُذِّب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ.

تهذيب الشريعة لسمع الإنسان

الشريعة في عظمتها نظَّمتْ ورتَّبتْ ووطَّدتْ أسس المسالك حتى يتجنَّب الناس المهالك، وحتى تُحفظ الحُرُمات للكل.. فحرَّمَت التنصُّت والاستماع لحديث قومٍ لا يحبونك أنْ تستمع حديثهم، فما عليك من ذاك الحديث!؟ وما عليك من التطلع إلى أسرار الناس، أو ما يحبون أن يغيب عنك!؟ إلى حدٍّ أن جعلت الشريعة حديث مَن حدَّثك بحديثٍ وأخذ يلتفتُ خشيةَ أنْ يسمعكم أحد أمانة عندك، فلا يجوز أنْ تُسمِعه الغير[١].

لكن الناس قَلَّ تقواهم لله تعالى فيما يتعلق بهذا الجانب. فوجبت الرعاية لرقابة الحق في ما تستمع إليه الآذان وما تنصت إليه من الأخبار أو القصص أو الأحكام أو الكلام عن الأحياء أو عن الأموات؛ لأجل ذلك نُهينا عن الاستماع إلى سبِّ المسلم حيًّا أو ميتاً وعُدَّ ذلك شراكةً للساب، فإنَّ المستمع شريك القائل. وأُمِرْنَا بذكر المحاسن ((**اذكروا محاسنَ موتاكم وكُفُّوا عن مساوئهم**))[٢] على وجه الخصوص، والأحياء كذلك. قال قائلهم: أرأيتَ يا رسول الله إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال: ((**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه**))[٣] أي وقعتَ في البهتان والافتراء والكذب وذلك أشد.

---

١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا حدث الإنسان حديثا والمحدث يلتفت حوله فهو أمانة.

٢) رواه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن عن ابن عمر.

٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الغيبة (الحديث: ٢٥٨٩).

فوجب إقامة الميزان لأذن الإنسان حتى يختار لها ما تسمعه فإنها بابٌ إلى قلبه.

وقد أشرنا إلى الآية الكريمة في ربطِ عضوين بالقلب فربط الثلاثة ربطاً واحداً فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وذكر شأن السمع في الذين عرفوا الحق وآمنوا به فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي المقابل تجد أهلَ الشرور والزور كيف يبتعدون عن الاستماع إلى الخيور ويحبون الاستماع إلى الشرور، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] كذلك تكون المقابلة للنصيحة من المستمع لها على حَسَبِ ما وَقَرَ في قلبه.

اللهم املأ قلوبنا بأنوار الخشية منك، والإنابة إليك، والاستعداد للقائك، وحسن الأدب معك، وبما يوجب لنا سعادة الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس:

وظيفة السمع تجاه النصيحة

الحمد لله السميع البصير العليم القدير، لا إله إلا هو منه المبتدأ وإليه المصير، أرسل إلينا عبدَه المجتبى محمداً البشير النذير والسراج المنير، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار في سبيله إلى يوم المصير.

أما بعد: فإن الذي جعل لنا السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ وحرَّكنا إلى استشعار واجب الشكر بِعتَبٍ على قلَّةِ الشكر فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩] مشيراً إلى استعمال هذه المواهب والعطايا والنعم الكبيرة عند أكثرِ الناس في غير ما خُلقت له، وفي غير ما ينفعهم ظاهراً وباطناً، دنيا وآخرة، واستعمالهم لها في معصية مَن وهبَهم إياها ومن أعطاهم إياها ومن مكَّنهم منها، وهو الله تبارك وتعالى.

واجب الشكر للمنعم

إن صاحب مملكةٍ ممدودةٍ بطاقاتٍ من الحواس والأجهزة العظيمة، وكل ما أبهرَ الناسَ بعد ذلك من أنواع المصنوعات والأجهزة إنما كان في هذا العالم نتيجةً لتلك الأجهزة الأصلية ولتلك العطايا الوهبية الإلهية للإنسان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فوجب على كل من اتصل بالإيمان بالواهب لهذه المواهب أن يقف على قدمِ الشكرِ لهذا المعطي والمانح جل جلاله، وأن يسخِّر تلك الطاقات في مرضاة الذي خلق،

وفيها عزُّه وشرفُه وكرامتُه واستقامةُ حال الناس في العالم وتهيئة انتقالهم إلى نعيمه المؤبد والملك العظيم المخلَّد ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١].

فإحسان استعمال السمع والبصر يترتب عليه أمرٌ كبيرٌ في استقامة النظر والفِكَر واستقامة الأخذ والعطاء واستقامة الوجهة إلى الحق سبحانه وتعالى، واستقامة التعامل بين أصناف الناس بموازين الحق التي بعث بها نبيَّه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ولهذا كان من مظاهر الصحة في استعمال السمع أنه عندما تقرعُ السمعَ نصيحةٌ من أحد أو تنبيه على غيٍّ عند الإنسان أو زلَّة أو هفوة أو تقصير أن يستقبل هذا الاستماعَ بفرحٍ يوجده فيه معرفتُه بحقِّ المنعم عليه، ومعرفته بعظمة المصير إلى المنعم جل جلاله، وفي هذا المعنى يقول أحد الذين تربَّوا على يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي[١].

فكانوا يحبون أن يُصيخُوا بسمعِهم للنصيحة، ويستنصحون إخوانَهم ومن هو دونهم ليلاحظوهم في مسيرهم، إذ خلُصت نواياهم وصفَت طواياهم وأدركوا المهمةَ في حياتهم وأرادوا الاستعدادَ للمصير وللوقوف بين يدي العلي الكبير، وللحُكم الذي يحكم به الحق جل جلاله بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، فمَن أسعدَه سعدَ سعادةً لا يشقى بعدها، ومن أشقاه شقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبدا.

١) رواه الدارمي في سننه.

الحرص على الاستفادة من النصيحة

قول سيدنا عمر: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، يُمثل الوجهةَ الصحيحةَ في استعمال السمع في محلِّه واستقبال النصيحة بالفرحة واستقبال النصيحة بالرضاء واستقبال النصيحة باعتبارها منَّة للناصح.. ومهما كان قصدُ الناصح إياك فيمكنك الاستفادةُ منه، كيف والعقلاء استعملوا أسماعَهم في الاستفادة من كلام من يعاديهم أو يحسدهم، فإنهم يأخذون منه ما عسى أن يبصِّرهم في تقويم معوجٍّ لديهم أو استكمال ناقصٍ عندهم، وما عليهم أن يحمل قلب أحدٍ عليهم شيئاً من الحسد أو الحقد أو التكبر وغيره، ولكن العاقل بصير.. يقول تعالى ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [الإنسان: ١٤-١٥] فيستفيد من الواقع ويوظِّف سمعَه في الموطن الذي يستحق أن يُوظَّف فيه فيما يعود عليه بالنفع دنيا وآخرة. فمن أجلِّ ذلك ما يتعلق بشأن النصيحة التي دُعينا إليها، وجُعلت الدين في قول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ((**الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامتهم**))[١].

وإن كان المعنى في الحديث للنصيحة عامًّا وشاملاً وفسيحاً أطولَ مما نتكلم عنه فيما يتعلق بالسمع، ولكن أيضاً كل ما تعلق بالنصيحة مما يُلقى عن أوصاف الله تبارك وتعالى وعظمته؛ وأوصاف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته وذكر أخلاقه وشمائله وهديه الشريف عليه الصلاة والسلام؛ وكذلك ما يتعلق

١) رواه مسلم في كتاب الإيمان- باب: بيان أن الدين النصيحة (الحديث: ٥٥).

بالقرآن إما تلاوة الآيات أو الحديث عن القرآن أو عن أحكامه أو عن فضائله أو فضائل سور منه أو آيات مخصوصة؛ أو الحديث كذلك عن أئمة المسلمين سواءً أئمة العلم أو أئمة الحكم فيهم، والحديث عنهم بما يُثبت في القلب تعظيمَ أهل الفضل والصلاح والعلم والتقوى، وما يُثبت أيضاً في القلب وجوبَ حسن التعامل مع أئمة الحكم بما يُبعد الناسَ عن الفوضى في أحوالهم وشؤونهم، وعن إقرار ما حرم الله تبارك وتعالى أو إبطال حقٍّ من الحقوق بالطرق القويمة السليمة، أو إلى ما يتعلق بشأن المجتمع وعامة الناس مما يُصلح الفرد والأسرة والمجتمع.. فالإصغاء إلى كل ذلك داخلٌ في الإصغاء إلى النصيحة والاستماع إلى النصيحة.

وكنا عنَينا بالاستماع إلى النصيحة في أول الحديث جزءاً من النصيحة وهو ما يتعلق بشأن الفرد منا، والملاحظة عليه، والتنبيه له، وتبيين شيءٍ من أفعاله أو أقواله على وجه النصح.. وتختلف النيات في ذلك.

ومع ذلك كله فالمنصوح ينبغي أن يقبل النصيحة ممن كان قبولاً حسناً، ويكون القبول الحسن بحسن نظره فيما قيل له، وحسن مخاطبته نفسه في إقامته الأمر على الوجه المرضي، وأن يستفيد مما نُصح به استبياناً لشأنه ولتصرُّفه ولشيء مما يعلق به، فإن الإنسان كثيراً ما يغفل عن شؤونٍ تتعلق به ولا يراها كما يراها غيره منه ولهذا جاء في الحديث: ((**المؤمن مرآة المؤمن**))[1]. وفي كل ذلك يقوم السمع هنا بوظيفة حسنة.

---

١) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن في كتاب الأدب – باب النصيحة للمسلم (الحديث:٤٩١٨)

أثر التناصح بين أفراد الأمة

وقد كان الصالحون من الصحابة والتابعين فمن دونهم يستنصحون السِّوى ويطلبون منه الملاحظة عليهم رجاء تقويم المعوجِّ وتكميل الناقص وتعديل المائل، وكل ذلك لِما يشعرون أنهم في ذلك يقومون بحقِّ عبوديةٍ تُفضي بهم إلى رضوان الله، وإلى حيازة الخصوصية والمزية والنعيم، فلأجل ذلك فرحوا بنصحِ بعضهم البعض، وطلبوا النصيحةَ من بعضهم البعض، وطلبوا الوصايا بينهم، والحق تبارك وتعالى قد جعل من أسس النجاة من الخسران إقامة هذا التواصي قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣] فبهذا التواصي الذي يحتاج إلى الآذان الصاغية والقلوب الواعية يستقر أمرُ الناس في استكمال النواقص، وفي تعديل المائلات، وفي تقويم المعوجات.. كل ذلك يفيدهم جمالاً وحسناً وبهاءً إذ وظفوا كلَّ عضو في هذه المملكة في وظيفته الصحيحة.. فمن وظيفة السمع محبةُ الاستماع إلى الملاحظة عليه رجاء إدراك منزلةٍ ساميةٍ من رضوان الرحمن جل جلاله.

ولما لقي سيدُنا عمر بن الخطاب سيدَنا سلمان الفارسي رضي الله عنه بعد غَيبةٍ كانت بينهما قال له: ما الذي بلَغك عني مما تكرهه؟ قال: اعفني يا أمير المؤمنين، فألحَّ عليه، قال: بلغني أنك لبست حلَّتين في يوم واحد، وجمعت بين إدامين على مائدة واحدة، قال: وهل بلَغك غير هذين؟ قال: لا، قال: أما هذان فقد كُفيتَهما، أي استمعتُ نصيحتَك وتنبهتُ إلى ما أشرتَ إليه، فمن بعد اليوم لا أجمع بين

إدامين على مائدة ولا ألبس حلَّتين في يوم واحد.. وهذا الإلحاح من سيدنا عمر على سيدنا سلمان الفارسي يبيِّن المسلكَ الذي أقامهم عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وإلا فكيف كانت نفسيةُ عمر قبل أن يُسلم وقبل أن يتبع المصطفى عليه الصلاة والسلام، وممن كان يقبل الكلام فضلاً عن أن يطلب النصيحة من أحد!؟ ولكن تلك المنازل السامية في تقويم هذه النفس وتزكيتها.

وإذا قامت النصيحة بين أهل الملة أورثَت كثيراً من الخير وأبعدَت عنهم أنواعاً من الآفات والشرور والبليات والعاهات والنزاعات والاختصامات والتباعدات، إلى غير ذلك من الشرور التي تحيط بالمجتمعات.

فيجب تقويم السمع وتوظيفه في وظيفته الصحيحة، ويُطلب لكثرة الاستماع إلى الكتاب العزيز، فلا يحرم الإنسان أذنَه من الإصغاء إلى كلام ربه في كل يوم وليلة، ويتخذ له ورداً من هذا الكتاب العزيز يتأمله ويتدبره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] .

فينبغي لكل مؤمن أن يتنبه، وإلى الحق يتوجه، وأن يوظف أعضاءه في الوظائف التي خُلقت لها ومن أجلها، لينال بذلك السعادة في الدارين.

أرشدنا الله إلى ما يرضيه وثبَّتنا على ما يحب فيما نقوله ونسمعه ونرويه.. إنه أكرم الأكرمين.. وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع:

حراسة البصر وأثره في البصيرة

الحمد لله واسعِ الألطاف، عالم الظاهر والخاف، لا إله إلا هو الواحد الأحد، أرسل إلينا حبيبَه المصطفى محمداً بمنهج الهدى والرشد، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك المجتبى الهادي إليك سيدنا محمد، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، ومن على منهجهم سار.

أما بعد: فإن الحقَّ تبارك وتعالى قد جعل لنا أبصاراً بها نبصر، تتصل بالبصائر إذا استُعملت على الوجه المطلوب، فتُحدِث في باطن الإنسان إدراكاً لمعانٍ ولحقائق ولعواقب ولنتائج ولثمرات الأقوال والأفعال والحركات والسكنات، إذا أحسن النظر لهذا البصر في ما بثَّ الله تعالى من واسعاتِ العبَر، وحمى البصر ومملكةَ البصر مما يورث الكدر، ويُفضي إلى الندامة في المستقر.. كل ذلك يبين لنا خطر النظر.

أثر حسن استعمال البصر على البصيرة

نستمع في آيات الحق تبارك وتعالى في عددٍ من السور إلى أمرٍ بالنظرِ والرؤية مقترِناً بمعنى التفكُّر وبمعنى التدبر والتأمل، فينتجُ عن ذلك أن استعمال البصر إذا تمَّ على وجهٍ صحيح كان مرتبطاً ببصيرةِ الإنسان، البصيرة التي إذا فُقدت من الإنسان فُقدت خصوصيتُه، وصار هو الأعمى على الحقيقة، قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أي لا خطر لفقدِ مجرد البصر إذا كان القلب مضيئاً منوَّرا.

كل ذلك يدلنا على حقيقةٍ في العمى والبصر، وأن المراد من البصر اتصالٌ بالبصيرة وهي الأساس، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] وكل من لم يتوطَّن العلمُ في قلبه أن ما أُنزل إلى محمدٍ من ربه هو الحق فهو أعمى.. فبذلك تعلم انتشار العمى الخطير في هذه الأمة، وأن أكثر الناس عميٌ عن سبيل الهدى لم تنفعهم أبصارهم، ولم ينفعهم نظرُهم ذلك لأنهم لو استعملوا هذا النظر على الوجه المطلوب الحسن لهداهُم إلى استنارة البصيرة، ولعرفوا به الحقيقة في هذا الوجود، من أن له الموجد العظيم البديع الخالق المكوِّن الفاطر جل جلاله، وأن المصير إليه، وأن ما قاله هو الحق، وأنه الذي أرسل رسلَه لينقذوا الناس ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ليهتدوا بهدي الله ويستبصروا مناهجَ الله تبارك وتعالى.

أثر النظر إلى الحرام على قلب المؤمن

يا صاحب البصر: ألا تدري أنه يخدش قلبَك كلُّ نظرةٍ خرجت عن منهج ربك، كل نظرة نظرتَ بها بالسوء إلى مسلم، بالاحتقار لمسلم، بإرادة الأذى للمسلم، كل نظرة تتبَّعتَ بها عورةَ مسلم، أو نظرتَ بها إلى بيت إنسان متطلِّعاً بغير إذنه أو إلى إنائه أو إلى حقيبته أو إلى شيء يخصُّه.. ألا تدري أنك بذلك تقع في سوءٍ يحجبك عن حقائق السعادة من حيث تدري ومن حيث لا تدري، ((ومن تتبعَ عورةَ أخيه المسلم تتبع اللهُ عورتَه حتى يفضحه ولو في جوف بيته))[1].

ألا تدري أنك إذا امتدَّت عينك إلى النساء الأجنبيات، أو امتدَّت عين المرأة إلى الأجانب تأمُّلاً للمحاسن بنظرِ الشهوة، أن كل ذلك يسبِّب كدراً في الباطن، يسبِّب ظلمةً في القلب، يسبِّب عمىً في البصيرة، يسبِّب حسرةً في القيامة، يسبِّب إذهاباً للبهاء، يسبِّب تعرُّضاً للعذاب، وفي ذلك جاءنا أمرُ القرآن: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣٠-٣١]

فوَّجه الخطابَ لنبيِّه ليخاطب المؤمنين، لأن غير المؤمنين لا يدرك لِمَ يلزمه أن يغضَّ طرفَه؟ لِمَ يلزمه أن يمنع عينَه من الامتداد إلى ما تشتهي النفس أن تمتدَّ إليه

---

١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

مِن المناظر ومن العورات ومن بيوت الناس وغيرها.. لكن المؤمن يفقه، وختم الآية بالحيثيَّة في الإيمان التي بها يفقه المؤمن لِمَ يغض البصر؟ ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ له مرجعٌ إلى خبير بصُنعه فيحاسبه عليه، فلذلك يجب أن يغضَّ البصرَ عما نهاه هذا الإله أن ينظر إليه، فقد نهاه عن النظر بعين الشهوة إلى أي شيء، ونهاه عن النظر بعين الاحتقار إلى أي مسلم، قال صلى الله عليه وسلم: ((**بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**))[1].

بل علَّمنا في أدب الشريعة أن نعرف الحكمةَ من خلقِ الكائنات وإن كانت نباتات أو حيوانات أو جمادات، وأمرنا أن نشهد الحكمةَ في خلقها، وبذلك نتخلَّص من أن نحتقرها فإن هذا الاحتقار يؤدي إلى ضررٍ علينا وإلى نقصٍ فينا وفي بواطننا وإلى خدشٍ لبصائرنا.

تقويم النظر عند المؤمن

لابد من رعاية قضية تقويم نظرِ المؤمن على الاعتبار والادكار بما في الكون، والاستعانة به على قضاء الحوائج والمنافع الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة، وحمايته وحراسته من أن يمتدَّ إلى العورات أو أن يمتد إلى الأجانب، كل ذلك لتستقيم البصيرة ويستقر البال، فإنه كما قال الشاعر:

---

١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم ظلم المسلم واحتقاره ودمه وعرضه وماله (الحديث: ٢٥٤٦)

كل الحوادث مبدأها من النظرِ ومعظم النار من مستصغر الشررِ
والمرء مادام ذا عين يقلِّبها في الغانيات فموقوفٌ على الخطرِ

وكلما امتدت العين إلى ما يتعلق بالشهوات كلما كثر التعب، كلما ثارت النار في القلب، كلما كدَّرت على الإنسان عيشَه، وقادته إلى تعب أو إلى جنوح إلى معصية الجبار، فيتعرض بذلك لما هو أشد عليه.. لأجل ذلك كان من الحزم أن تستحكمَ إرادة الإنسان في بصره الذي آتاه الله إياه ليستزيد به بصيرةً في عظمته تبارك وتعالى ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]

فمن الخطر الكبير أن نرسل الأبصار لما يُذكي الشهوات، بل ذلك مما يعجِّل لنا التعب ويعرِّضنا لعذاب المنقَلب، لذلك كان من الخير للإنسان أن يكفَّ بصرَه عما حرم الله تبارك وتعالى. والعجب أنه بكفِّ البصر عما حرم الله يعاجَل بمثوبة يجد أثرَها في الدنيا قبل الآخرة، ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس.. يقول الله: من تركَها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوتَه في قلبه**))[1] فيذيقه حلاوةَ الإيمان تعجيلاً للمثوبة وهو في هذه الدنيا بمقدار ما يغض بصرَه عما حرم عليه تبارك وتعالى.

---

١) أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة.

فيا صاحب هذه المملكة البصرية لو راقبتَ الحقَّ تبارك وتعالى السميع البصير في استعمال هذا البصر لهيأتَه لنظرِ وجوهِ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في القيامة وفي دار الكرامة، ولو لطَّختَ البصرَ بالنظر إلى العورات والمحرمات، وبالنظر بعين الشهوة إلى الأجنبيات، ونظرِ النساء بعين الشهوة إلى الرجال الأجانب تعرَّضتَ أن تُحرم كل هذا النظر في الآخرة، وأن لا تنظر إلا إلى وجوه الكفرة والفجرة التي عليها غبرة، والنظر إلى العذاب في النار والعياذ بالله؛ فهيئ هذا النظر لرؤية وجه النبي محمد وهو حامل للواء الحمد في القيامة.. وكيف تهيئ هذا النظر إلا بكفِّه عن تلك المحارم، إلا بأن تكون ذا قرار فيما يسترسل إليه بصرُك ويمتد إليه نظرُك، وصاحب هذا القرار يعرف التحكّم فيما ينظر إليه، سواءً في الأوراق والمجلات أو في الشاشات أو في الانترنت أو في التلفاز أو غير ذلك، وصاحب القرار السليم في هذا الجانب يتهيأ للنعيم المقيم وللحظِّ العظيم في الدنيا والآخرة.

اللهم اجعل أبصارَنا وأسماعَنا مصروفةً لما يوجب لنا الكرامةَ والعزةَ في الدنيا والآخرة، واحرسنا من أن تقودنا إلى الندامة والحسرة وإلى الوقوع في العذاب الأليم، يا حي يا قيوم اجعلنا من أهل القرار على ما يصدر منهم من أسماعٍ وأبصار، حتى نشكر في الدنيا ودار القرار برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن:

النظر بعين الرحمة والمودة وآثاره

الحمد لله السميعِ البصيرِ اللطيفِ الخبيرِ العليم القدير، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، أرسل إلينا عبدَه البشير النذير محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم داعياً وهادياً وسراجاً منيرا، اللهم أدِم صلواتك على عبدِك المصطفى المجتبى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار في دربه.

أما بعد: فإنه أمام نعمة البصر الموهوبة من الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان يمكن حيازةُ الدرجات وارتقاء المراتب وتحصيل المثوبات بواسطة حُسن استعمال هذا البصر وصرفِه فيما يرضي الحقَّ الأكبر جل جلاله وتعالى في علاه.

يا مُنعَماً عليه ببصرٍ - تنقل له الخلايا بألوفها وملايينها الصورَ إلى ذهنه فيستفيد من ذلك مدارك كثيرة - : اتقِ الذي خلقَ لك هذا البصر وآتاك إياه، وراقِب كيف يكون تصرُّفُك فيه وكيف تصريفُك إياه، هل هو على مقتضى ما شرع لك وبيَّن لك وجعل لك في منهجه، أم أنك متطاولٌ على الذي آتاك وأعطاك وأنعم عليك بهذه النعمة لتصرِفها فيما حرَّم عليك وفيما نهاك عنه وفيما حذَّرك منه.

ارتباط البصر ببعض العبادات

للبصر مجالات واسعة تتعلق بأنواع العبادات، فيحتاج المصلي إلى كفِّ بصرِه عن النظر إلى هنا وهناك فيكون ذلك أدعى لحضور قلبه مع الله وتحقيق حقيقة

الصلاة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾(المؤمنون: ١-٢)، ولذلك جاء الحث على النظر إلى موضع السجود بحيث لا يلتفت إلى شيء عن يمينٍ ولا عن يسار، بل قالوا: من فرَّق بين من على يمينه ومن على يساره فليس بخاشع، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**لينتهينَّ أقوامٌ عن رفعِ أبصارِهم في الصلاة أو لتُخطفنَّ أبصارُهم**))[1] وقال عليه الصلاة والسلام عن الالتفاتِ في الصلاة: ((**إنه اختلاسٌ يختلسهُ الشيطان من صلاة العبد**))[2] ينقص بها صلاة العبد.

كذلك في الصوم نجد أن الذي يصوم ثم يطلق نظرَه لينظر إلى ما حرم الله عليه نظرُه، لينظر بعين الشهوة، ولينظر إلى عورات الناس، أو إلى ما لا يحل له النظر إليه، يكون قد فقدَ حقيقةَ الصوم، وروحَ الصوم، وغايةَ الصوم.. وفي الأثر: ((**خمسٌ يفطِّرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، واليمين الكاذبة والنظر بشهوة**))[3] فتُذهب أجرَه وتُبعد عنه حقيقةَ الصوم وروحَه وأثرَه العظيم، الذي له ثوابٌ ليس كغيره من الطاعات والعبادات، قال صلى الله عليه وسلم:((**كل حسنة تُضاعَف بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلي**))[4] وذلك من جملة المشتَهيات التي تتعلق بالبصر.

---

١) رواه مسلم في كتاب الصلاة- باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة (الحديث:٤٢٨، ٤٢٩).

٢) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة- باب الالتفات في الصلاة (الحديث: ٧١٨).

٣) رواه الديلمي عن أنس، وأخرجه الأزدي في الضعفاء.

٤) رواه أحمد عن أبي هريرة، والبيهقي في شعب الإيمان.

وقد أسلَفنا أن الحقَّ تبارك وتعالى يعجِّل المثوبةَ لمن غضَّ البصر عما حرم عليه، فيبادئه بوهبِ حلاوةٍ للإيمان بالله تعالى يذوقها، ((**أبدلتُه إيماناً يجد حلاوتَه في قلبه**))، تلك حلاوةٌ أشهى عند ذوي العقول وأولي الألباب من كل نظرة حرام ومن كل شهوة، فهي حلاوة ألذُّ وأطيبُ من كل تلك التي هي في صورِها لذائذ، وفي مغبَّاتها شدائد وعواقب سوء.

لأجل كل ذلك وجب تقويمُ النظر ليكون مُنقاداً لأمر الحق الأكبر تبارك وتعالى، وبذلك يحسن الحال في صلاة أو في صيام، ويستقر الصيام على الوجه المطلوب للحق تبارك وتعالى، ويحوز الإنسان وافرَ الثواب في هذا الصوم، وكذلك في حجِّه ومختلف عباداته.

ولهذا يسَّر الله على الإنسان إغماضَ عينيه، وجعل له أجفاناً يُطبقها بكل سهولة ويُسر، يسد بها نظرَه وتطلُّعه إلى ما لا يحل.. فالذي وهبك هذا البصر ويسَّر لك سدَّه ألا ينبغي أن تسدَّ نظرك عما حرم عليك بما يسَّر لك ذلك وسهَّله عليك؟ فذلك من واجباتك المهمة يا هذا الإنسان، ويا هذا العبد للملك الرحمن جل جلاله.

وكل ذلك يحملنا على أن تكون لنا وقفاتٌ صحيحةٌ في التحكُّم في هذه الأنظار وفي هذه الأبصار لنوظِّفها فيما يعود علينا بالنفع دنيا وآخرة. ومن كان يشتاق رؤية الجنان وما فيها من نعيم الرحمن، ورؤية الحور العين هناك، ورؤية أنواع النعيم والعطاء فيحق له أن يكفَّ هذا البصر عما حرم المولى جل جلاله، وأن يطلقه فيما يعود بالخير على المسلمين.

النظر بعين الرحمة والشفقة والإكرام

ولنأتِ إلى وجهٍ من أوجه النظر، وهو وجهُ إطلاق النظر بالرحمة والشفقة للمسلمين والإكرام والتعظيم للمؤمنين، هذه النظرة تؤثر كثيراً في القلوب، تؤثر كثيراً في علاقات الناس مع بعضهم البعض، إذا جُعلت الابتسامة في وجه المؤمن صدقة لأنها تبعث المودة، وتضفي على القلب شعوراً حسناً، جُعل النظر إلى وجه المؤمن بالرحمة، بالشفقة، بالإكرام، بالاحترام، بالتعظيم حسناتٍ عظيماتٍ واسعة المثوبات لها تأثيراتٌ عاجلةٌ في العلاقات بين الناس، في نشرِ الألفة بين أفراد الأسرة والمجتمع، ينتشر بينهم الخير إذا استقام هذا النظر. وإذا كان بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، فبحسبه من الخير أن يعظِّم أخاه المسلم، وأن ينظر إلى أخيه المسلم نظرةَ رحمة، نظرةَ شفقة، نظرةَ حنان، نظرةَ عطف.

النوع من هذه النظرات مفتقَدٌ في كثير من شؤون الناس في حياتهم، وبذلك فاتَهم خيرٌ كثير في نواحي متعددة.. منها ما يتعلق بالأسرة، أخوة وزوجية وأبوة وبنوة، كل هذا إذا افتقد النظرَ بعين اللطف والشفقة والحنان اختلَّت موازين الأسرة، واختلَّ استقرارها واختلَّت الروابط فيما بينها وتزعزعت، لأجل ذلك كان من الضروري تقويم هذا النظر، والانطلاق بالنظرة بالرحمة والشفقة والمودة والمحبة بين المسلمين عامة، وبين الأقارب والجيران والأصدقاء والأصحاب والذين يجمعهم مسجد وتجمعهم مدرسة أو يجمعهم مكتب خاصة، وكل ذلك مفيدٌ في الحياة الأسرية، في الحياة الاجتماعية، عائدٌ أثرُه حتى على حركاتهم التجارية وتعاملاتهم الدنيوية.

آثار هذه النظرة في المجتمعات

إذا سادت هذه النظرة أثرت تأثيراً كثيراً في القلوب وأحدثَت انبعاثاً للنصيحة للآخر.. في الإخلاص مع الآخر.. لنفعِ الآخر.. لإدخال السرور على قلبِ الآخر؛ فينبغي أن لا يُغفَل عن هذه النظرة وتقويمِها وأن يُنتبه من عبادة الله تعالى بالنظرِ بعين الرحمة إلى المسلمين، وإلى من حواليك ممن تجالس وممن تخاطب.

وعلى أنه تجد الأثرَ للنظر واضحاً بمجرد أول ما يقع نظرُ الإنسان عليك، حتى أن ممن تفيض منهم الرحمة من يأسُرك لأول نظرةٍ ينظر بها إليك، وتأخذ في الاشتداد إليه من أول نظرةٍ يقع بها بصرك عليه، على أنه كم من معالجات يحتاجها الناس باستدامة النظر بعين الرحمة والشفقة، وتقويم ذلك وتقويته.. فربما لم يظهر الأثر لأول وهلة، ولكن مع الاستمرار والدوام في النظر بهذا الوجه تحدث الآثار وتظهر على ممرِّ الوقت.

لأجلِ ذلك ينبغي أن لا يُغفل هذا الجانب جانب النظر باللطف والرحمة والشفقة، حتى على من أخطأ ليكون ذلك سبباً لعلاج خطئِه ولتحويله من الخطأ إلى مسلك الصواب، فهذا أيضا مما يُعالَج به، حتى إذا احتيج إلى عتاب أو احتيج إلى إقامة حدٍّ عليه ينبغي أن لا تختل النظرة وأن لا يكون عونَ الشيطان على أخيه كما قال صلى الله عليه وسلم للذي سبَّ الذي ضُرب حدًّا في شرب المسكر، فلما سبَّه قال صلى الله عليه وسلم لذلك الساب: ((**لا تكن عونَ الشيطان على أخيك**))[١] أي إننا نقيم الحدودَ للإنقاذ، للإصلاح، للإسعاد، ولترفيع المستوى، لا

---

١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب.

لاحتقار الناس ولا لإنزالهم إلى الحضيض بالتشفِّي فيهم. ولكنا نضطر إلى إقامة الحد عليهم لرفعِ مستواهم ولبعثِ ضمائرهم بالخير، وللحيلولة بينهم وبين ما يضرهم، ولتقويمهم وإصلاحهم. كذلك النظرة في هذا الدين الواسع العظيم.

وبهذه النظرة يضيف الصائم إلى عبادته عبادات، وكذلك صاحب الأعمال الصالحة الأخرى، إذا كان في أثنائها يحمل هذه النظرة إلى مَن حواليه يضيف إلى عبادته عبادات، وهذه عبادات مع أن لها اتصال بالنظر فإن مبعثَها القلب، فهي عبادات قلبية عظيمةُ الثواب عند الله تبارك وتعالى لا يتصور كثير من الناس أن لها مثوبةً عند الله، وأن لها أجراً كبيراً، فهي عبادات عظيمة، عبادة النظر بعين الحنان، بعين الشفقة إلى المسلمين عامة، وخصوصاً إكرام الوالدين والنظرة إليهم بالإكبار والاحترام، النظرة إلى الجد أو الجدة، النظرة إلى الابن الصغير بعين الرحمة والشفقة، النظرة إلى الأخ، النظرة إلى الأخت.. إلى غير ذلك، فهو من جملة الأسباب التي تقوِّم الصلات بين أفراد المجتمعات المسلمة، وتكون أيضاً سبباً لإنقاذ الكثير وهدايتهم وإرشادهم.

جعلنا الله ممن يحسن النظر فيما يرضيهم عنه ظاهراً وباطناً، ورزقَ قلوبَنا من الشفقة والرحمة والحنان والعطف والرأفة والإكرام للمسلمين ما تتقوَّم به أنظارنا وتستمر وتدوم على النظر باللطف والرحمة والشفقة، فنقطف الثمار والنتائج هنا وهناك.. يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع:

نظرة الاعتبار بالكائنات ودرك المهمات

الحمد لله مولى الموالي، مكوِّن الكائنات، إليه مرجعُ الكل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[يونس: ٩٣] اللهم صلِّ وسلِّم على أمينك المأمون، سيدنا محمد هادينا إلى الهدى والصواب، وعلى آله والأصحاب، وعلى من سار في سبيله وتخلَّق بأخلاقهِ الكريمة وتأدَّب بما جاءنا به من الآداب، وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا كريم يا وهاب.

أما بعد: فإن مجال البصر واسعٌ فيما يؤدي إليه وفيما يثمره، وفي الأوجه التي يُستعمل بها، وإن من الأوجه المهمة التي ينبغي أن يُستعمل فيها البصر أن يُصرف للاستبصار وللإدكار وذلك بكل ما يقع عليه البصر.. فإنه على اتِّساع العقل واتساع الإدراك عند الإنسان يمكنه أن يستفيد من كل ما يقع عليه بصرُه، وهو على ميزانٍ يعرف به أين يغضُّ البصر فيسارع إلى غضِّه، وأين يرسله فيستفيد من إرساله، ويستفيد من غضِّه، فهو رابح في كلا الأحوال، وكلما وقع بصرُه على شيء امتدَّ منه النظر إلى حكمته، وإلى ما يحمله من آيات ودلالات وعبر﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١] ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾[الأعراف: ١٨٥] كل شيء خلقه الله يحمل دلالات، يحمل عبَر، يحمل آيات، يحمل استبصارات، يحمل

لاحتقار الناس ولا لإنزالهم إلى الحضيض بالتشفِّي فيهم. ولكنا نضطر إلى إقامة الحد عليهم لرفعِ مستواهم ولبعثِ ضمائرهم بالخير، وللحيلولة بينهم وبين ما يضرهم، ولتقويمهم وإصلاحهم. كذلك النظرة في هذا الدين الواسع العظيم.

وبهذه النظرة يضيف الصائم إلى عبادته عبادات، وكذلك صاحب الأعمال الصالحة الأخرى، إذا كان في أثنائها يحمل هذه النظرة إلى مَن حواليه يضيف إلى عبادته عبادات، وهذه عبادات مع أن لها اتصال بالنظر فإن مبعثَها القلب، فهي عبادات قلبية عظيمةُ الثواب عند الله تبارك وتعالى لا يتصور كثير من الناس أن لها مثوبةً عند الله، وأن لها أجراً كبيراً، فهي عبادات عظيمة، عبادة النظر بعين الحنان، بعين الشفقة إلى المسلمين عامة، وخصوصاً إكرام الوالدين والنظرة إليهم بالإكبار والاحترام، النظرة إلى الجد أو الجدة، النظرة إلى الابن الصغير بعين الرحمة والشفقة، النظرة إلى الأخ، النظرة إلى الأخت.. إلى غير ذلك، فهو من جملة الأسباب التي تقوِّم الصلات بين أفراد المجتمعات المسلمة، وتكون أيضاً سبباً لإنقاذ الكثير وهدايتهم وإرشادهم.

جعلنا الله ممن يحسن النظر فيما يرضيهم عنه ظاهراً وباطناً، ورزقَ قلوبَنا من الشفقة والرحمة والحنان والعطف والرأفة والإكرام للمسلمين ما تتقوَّم به أنظارنا وتستمر وتدوم على النظر باللطف والرحمة والشفقة، فنقطف الثمار والنتائج هنا وهناك.. يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع:

نظرة الاعتبار بالكائنات ودرك المهمات

الحمد لله مولى الموالي، مكوِّن الكائنات، إليه مرجعُ الكل ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾[يونس: ٩٣] اللهم صلِّ وسلِّم على أمينك المأمون، سيدنا محمد هادينا إلى الهدى والصواب، وعلى آله والأصحاب، وعلى من سار في سبيله وتخلَّق بأخلاقهِ الكريمة وتأدَّب بما جاءنا به من الآداب، وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا كريم يا وهاب.

أما بعد: فإن مجال البصر واسعٌ فيما يؤدي إليه وفيما يثمره، وفي الأوجه التي يُستعمل بها، وإن من الأوجه المهمة التي ينبغي أن يُستعمل فيها البصر أن يُصرف للاستبصار وللإدكار وذلك بكل ما يقع عليه البصر.. فإنه على اتِّساع العقل واتساع الإدراك عند الإنسان يمكنه أن يستفيد من كل ما يقع عليه بصرُه، وهو على ميزانٍ يعرف به أين يغضُّ البصر فيسارع إلى غضِّه، وأين يرسله فيستفيد من إرساله، ويستفيد من غضِّه، فهو رابح في كلا الأحوال، وكلما وقع بصرُه على شيء امتدَّ منه النظر إلى حكمته، وإلى ما يحمله من آيات ودلالات وعبر﴿ **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾[يونس: ١٠١] ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** ﴾[الأعراف: ١٨٥] كل شيء خلقه الله يحمل دلالات، يحمل عبَر، يحمل آيات، يحمل استبصارات، يحمل

ادِّكارات للمدَّكر، ولكن الغفلة إذا شملت الإنسان صار ينظر العبرَ مُعرضاً غير متنبهٍ ولا عابئٍ بها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وبذلك نعلم أيضاً أننا معشر أهل هذه الملة ينبغي أن لا نُغفل الاستفادةَ من استعمال البصر في مجال الاستبصار والادكار في شؤون الكائنات، والاعتبار بالآيات التي فيها، الدالَّة على عظمة خالقها وباريها جل جلاله، سواءٌ ما يتعلق بشأن الأرض ونباتاتها وعجائب ذلك، أو الحيوانات الغريبة التي فيها برًّا أو بحراً، وقد تُعرض في ذلك أفلامٌ كثيرة، ولكن مِن الناس مَن يكون مبعثُه للنظر مجرد الاستعجاب والاستغراب، غافلاً عن ربطِ ذلك بمسبِّب الأسباب والمكوِّن والخالق لهذه الأشياء من الماء سبحانه وتعالى بقدرته الواسعة.

ربط النظر بعظمة الخالق عز وجل

ينبغي ربطُ النظر في شأن هذه البدائع المصنوعة بعظمة الصانع وقدرته وإرادته وتذكُّر المصير إليه، فنتفكر في عجائب البراري والبحار، وعجائب السماوات والهواء، بل وفي أنفسنا كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣] والبصر على هذا الوجه يزيد الإنسانَ إيماناً ويقيناً بالواحد الحق الخالق المكوِّن البارئ المصور سبحانه وتعالى.

فينبغي أن لا يهمل الإنسانُ هذا الأسلوبَ من النظر وهذا الوجه للإبصار والاستبصار، فيفكر في الترتيب البديع المُحكم المُتقن ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٣-٥] تجد في كل خلقِه آيات، تجد في كل خلقِه حِكَماً، تجد في كل خلقِه علامات، تجد في كل خلقِهِ بدائعَ من حسن الترتيب وحسن التدبير ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣] جل جلاله وتعالى في علاه.

كم من عجائب في شؤون النحل وخلاياها! كم في شؤون النمل وبيوتها ومساكنها وترتيباتها.. كل ذلك إذا تمَّ النظر إليه على وجه الاستدلال به أثمر فوائدَ كثيرة، ونمَّى الإيمان وقوَّى التوحيد عند هذا الناظر، ومن هنا ينبغي أن يُتعوَّد هذا الوجه من النظر في حياتنا العادية، وأن يستحكم علينا عند مشاهدتنا للأفلام التي تعرض شيئاً من بدائع الكواكب أو بدائع الحيوانات في البر أو في البحر وغيرها من كل ما ينبغي الاستدلال به.

ومن هنا نعرف أن من وظيفة المدرِّس للجيولوجيا أو لشيء من علوم الفضاء وهو من المسلمين في مدارس المسلمين أن يُحسن ربطَ ذلك ببعثِ الالتفات إلى عظمة الإله، عظمة الصانع، عظمة الخالق وقدرته، وكيف أن إليه المصير، وكيف ينبغي أن يخافه العبد وأن يرجوه وأن يطمع فيما عنده، فهذه من جملة الوظائف

التي ينبغي أن يحملها المدرسون خاصة، والخائضون في عجائب السماوات والأرض من المؤمنين والمؤمنات، وفي ذلك استعمالٌ للأدب النبوي الذي جاءنا به صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أسلوبه في حديثه عن هذه الكائنات يبعث العظمةَ في القلب للذي كوَّن، والذي قدر فهدى والذي خلق فسوى جل جلاله، ونجد في هذا مجالاً واسعاً لاستبصار المستبصرين، فهو مجال من مجالات النظر الذي ينبغي أن نكتسب به درجات، ونكتسب به مراتب ساميات بتسييره فيما دعانا إليه الحق تبارك وتعالى مكوِّن هذا البصر وخالقه جل جلاله وتعالى في علاه.

وقال الأعرابي لما ذُكر له الدليل على وجود الحق: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج، أفلا تدل على الصانع الخبير.

يحوي النظر على هذا الوجه كثيراً من الفوائد، ويعيد عوائدَ طيبةً على أهل الإسلام والإيمان؛ والحق تبارك وتعالى في بعض عجائب الصنائع خاطب الكفارَ بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكان اكتشاف كثيرٍ من تلك الشؤون يأتي أحياناً على أيدي الكفار، وذلك لغفلةٍ عند المسلمين عما يلزمُهم، ورضاً منهم بأن يُشغَلوا بمطامعهم الذاتية الشخصية، وأن يستحكم ذلك عليهم حتى لا يدري أحدهم بمصالح المجتمع ومصالح الأمة من ورائه إلا الأفراد القلائل، وهو أمرٌ يجب أن نترفَّع عنه.

النظر في واقع الأمة وأثره

يجب أن ينتشر بيننا إدراكُ أن من مهمة الفرد بيننا فضلاً عن الجماعة، النظر في واقع الأمة ومستقبلها ومصالحها الكبيرة، وأن له دوراً يجب أن يؤديه فيما يعود على الأمة بالفائدة والمصلحة، وإذا رضينا بالسجن في اللهفِ وراء المصالح الشخصية والمطامع الدنيوية أدى ذلك لأن نكون القاصرين في الاستكشاف للبدائع وعجائب المصنوعات، وفي إظهار وإبراز حقائق هذا الوجود، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولكن مصيبة التربية عندنا أن يتربى الواحد على مصالحه الشخصية ومطامعه ومُتعِه الفانية، يتلقى ذلك من خلال أسرته التي يعيش فيها، لا يجد فيهم من يُنهض همَّته وعزيمته لأن يكون النافعَ للأمة، الناشر للخير، المقوِّمَ للفضائل والقيَم بين الناس، كل ذلك يكسب الناشئ بيننا تقوقعاً وانحباساً ربما كان في تصوُّره غايةً في الإدراك، فيقتصر على ما يعود عليه بالدخل المادي الشخصي، ويرى أن ذلك هو الذي ينصرف إليه المثقفون والطامحون والمتطوِّرون، وكل ذلك مِن قلبِ الموازين، ومن عدم استقامةِ النظر في استعمال البصر في غير مجاله وعلى غير وجهه، فأثَّر ذلك على البصائر فقلَّب الحقائق وجاءت هذه النظرات المعتلَّة الخاطئة من هذه البصائر، فأعادت بذلك عوائد على واقع سيرِنا وواقع تصرُّفنا في

هذه الحياة وعلائقنا بالأماني وبالمرادات وبالمطالب وبالمطامع التي تنزل على قلوبنا، وعلائقنا بالمجتمعات التي نعيشها والأزمنة التي تمضي بنا في هذه الحياة.

فكم من صاحب عمرٍ ليس بالطويل من حيث العدد، لكنه حمل الهمةَ والهمَّ في أنه صاحبُ مسئوليةٍ وواجبٍ في نفعِ الأمة، فأجرى الله على يديه منافع كثيرة كبيرة لاستقامة ذلك النظر، وأصبح لا ينظر بعين الاغترار ولكن ينظر بعين الاعتبار، ولا يغتر بزخارف الدنيا ومظاهر زينتها، بل يُعمِل النظرَ في باطنها والاعتبار بما جرى من أحوال أهلها، فكل ذلك يقيم الإنسان مقاماً صحيحاً في أن يدرك مسئوليتَه الكبرى في هذه الحياة. فكم من صاحب عمرٍ قصير أجرى الله على يديه خيراتٍ كثيرةً نفعت العباد من بعده، وكم من جامعٍ للأموال أو حاوٍ للملك أو ظاهر باسمٍ من الأسماء في هذه الدنيا تلاشى، وتلاشى اسمُه ومضى عمرُه ولم يحقِّق هدفاً سامياً ولم ينل منزلاً عالياً على الحقيقة، فذهب وذهب ما كان عنده، وصار مصيرُه على حسب ما انطلق فيه وتصرف به في ذلك العمر الذي قد يطول في الصورة وليس بطويل في الحقيقة.

اللهم ارزقنا حسنَ النظر فيما يرضيك عنا، وقوِّم بصائرَنا وأبصارَنا على ما يرفعنا في المراتب، وعلى ما يوقِفُنا على واجب الخدمة للأمة والنفع للعباد يا برُّ يا يا كريم يا جواد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس العاشر:

أثر المصافحة في القلب والمجتمع

الحمد لله الملكِ القادر، جامع الخلائقِ لليوم الآخر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، أرسل عبدَه المصطفى محمداً بالهدى ودينِ الحق ليظهرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار في دربه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الله سبحانه وتعالى جعل اليدين من جملة أعضاء الإنسان التي يُنسب إليها كسبُه وسعيُه، ويُنسب الكسب إليها ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥] ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، كل ذلك لأن لليد دوراً مهمًّا في إنجاز أي عمل، بل وفي إحداث أي حدثٍ من الإنسان، فهي حاضرةٌ معه بحركتها في تمكينه من قضاء حاجته ووصوله إلى مأربه ومسعاه الذي يسعى إليه، لذلك نُسِب كسبُ الإنسان وسعيُه كله إلى هذه اليد.

ومن هنا كانت اليد عضواً مهمًّا من أعضاء الإنسان، تحتاج من الذي آمن بالحق تبارك وتعالى أن يقيم حركتها في تناولها للأشياء ومسِّها للأشياء وضربِها ووزنِها وكيلِها ورفعِها وحطِّها وشدِّها للأمر وإرخائها له وغير ذلك، بأن يكون على بصيرة في كل ذلك، وأن يكون متصلاً بذلك القلب الذي آمن بأن لكل حركة وسكون مسئولية، ولكل حركة وسكون نتيجة ومصير وجزاء.. فمن أجل ذلك كله وجب الاهتمام بشأن اليد.

أثر المصافحة في القلب

تترتب على اليد أمورٌ كثيرة تتعلق بشؤون معنوية وغيبيَّة تقوم أيضاً في مجتمعات الناس بآثار واسعة واضحة، فمن هنا جاءتنا الشريعة المطهرة بمدِّ اليد لأجل مصافحة المسلمين، وجُعل ذلك سبباً لأمرٍ يتعلق بالقلب وهو إذهاب الغل.. قال صلى الله عليه وآله وسلم ((**تصافحوا يذهب الغل عن قلوبكم**))[1] بل كل أمرٍ من أمور الجسد والظاهر له علاقةٌ بعالم الباطن والقلب، فهناك أثرٌ بين التصافح بالأيدي وبين تلاقي القلوب وتقاربها، فلأجل هذا جاءت سنة المصافحة، وجاء التنبيه فيها على ذلك الأمر القلبي المتعلق باستقامة المؤمن على طُهرٍ في القلب فيما يحمله نحو الآخرين، وهذا يُفضي به إلى السلامة التي ينجو أصحابها من الخزيِ يوم القيامة، ومعنا دعوة الخليل إبراهيم في قرآن ربنا يقول لربه سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

وقد عرفنا في عظمة الشريعة وسعتها ترتيبَ وتنظيم الحركة في اللقاءات وفي الاجتماعات وفي مقابلات المؤمنين لبعضهم البعض، فجاءت المصافحة بأحكامها.. فحكمها الندب على الأصل طلباً لذهابِ الغل، ونشراً للألفة، وإشارةً من التماسك الحسي إلى تراصٍّ وتماسك في صفوف أبناء هذا الدين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] وسعياً

---

١) رواه ابن عدي عن ابن عمر، ومالك في الموطأ.

لنشرِ حقيقة الصفاء والمحبة والإخاء، جاءت المصافحة على هذا الوجه، واعتنى بها الصحابة بأمرِ النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

مصافحة الملائكة للمؤمنين وأثرها

أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تُشارك بني آدم في هذا العمل الذي ينبني عليه خيرٌ كبيرٌ مما يتعلق بالقلوب وطهارتها، فيتصافحون معهم وإن لم يروهم، ويحضرون مع المؤمنين مجالس الذكر ومجالس الصلاة، بل جاء في الخبر مصافحة سيدنا جبريل عليه السلام لبعض المصلين والصائمين في رمضان على وجه الخصوص، قال صلى الله عليه وسلم ((**من فطَّر صائماً في شهر رمضان من كسبٍ حلال صلَّت عليه الملائكة ليالي رمضان كلها وصافحه جبريل ليلة القدر، ومن صافحه جبريل عليه السلام يرقُّ قلبُه وتكثرُ دموعُه**))[1]، فهي العلامة لتلك العملية، عملية المصافحة بعملٍ أيضاً باليد يتعلق بإطعام الطعام وتفطير الصائمين فقد جاء هذا الحديث في فضل تفطير الصائم، فمن أثرِ بذلِه ورغبتِه في هذه المكرمة، وهي تفطير الصائم وإطعامه الطعام يحوز المنزلةَ السامية التي ربما أُكرم بها بمصافحة جبريل وهو لا يراه وهو لا يشاهد شخصه، فتكون المصافحة مع مصافحة بني آدم، فأيديهم في أيديهم، ولكن العلامة تظهر.. وهي التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **ومن صافحه جبريل يرق قلبُه وتكثر دمُوعه**.

انظر إلى كسبِ اليد أولاً ببذل المال والطعام لتفطير الصائمين ابتغاء وجهِ الله شريطةَ أن يكون الكسبُ طيباً، إذ قال في الحديث: ((**من كسبِ حلال**)) والأمر كله

---

١) رواه أبو الشيخ عن سيدنا سلمان الفارسي.

متعلق بكسب الأيدي، فاليد التي كسبت المال من الحلال ثم أنفقتهُ في مثل هذا الوجه في تفطير الصائم تتهيأ لأن تصافحها يدُ أمين الوحي سيدنا جبريل، وتحصل النتيجة، وهي أن يرقَّ قلبُه وتكثر دموعُه، فيخرج من قيد القسوة والغفلة والجمود إلى ذاك الإنفساح الإيماني، فإذا بالقلب رقيق، والعين تدمع من خشية الرحمن جل جلاله، قال صلى الله عليه وآله وسلم ((**كل عينٍ باكيةٌ يوم القيامة إلا عينٌ غضَّت عن محارم الله عز وجل، وعينٌ سهرت في سبيل الله، وعين خرج منها مثلُ رأس الذباب دمعة من خشية الله عز وجل**))[١].

فانظر إلى ترابط الأمور بعضها ببعض، وما يؤدي كسبُ اليد ويؤثر على القلب وعلى الجوارح، هذا كسب اليد بالتورع في أخذِ الحلال خاصة، ثم البذل في المحل الذي يحب الله البذلَ فيه، ثم إذا بالملائكة تصافح هذا الإنسان، ثم إذا بالأثر في القلب وفي العين أيضاً، وإذا العين تدمع والقلب يرق ويخشع، كل ذلك نتيجة لكسبٍ حسنٍ لهذه اليد، فصار شأن اليد شأناً عظيماً.

المصافحة على وجه المودة والإكرام وآدابها

يترتب على عمل اليد في المصافحة أيضاً المصافحة على وجه المودة والمحبة والإكرام، يسبق اليدَ فيه القلب.. فيسبق القلبُ إلى معنى المودة ومعنى الأخوة واستشعار رابطة الإيمان والمحبة ثم تعبِّر عن ذلك اليد فذلك هو المقصود، وعلى أن مِن أهل الضعف في الإيمان مَن تسبق مصافحة اليد رجاء أن يتسلَّل إلى القلب حقيقةُ المصافحة فيذهب الغل ثم يلتقون، وهذه درجة ثانية وهي أيضاً من جملة

---

١) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة بإسناد حسن.

الأدوية والعلاج لهذه الأمراض الخطيرة أمراض شحِّ القلب، غل القلب، بغضاء القلب، شحناء القلب، تُعالجُ بواسطة امتداد اليد للمصافحة، ولكن من سما فسبق قلبُه إلى المصافحة فما تأتي المصافحة إلا تأكيداً وتوثيقاً للوصف الحميد الجميل الذي يحل في القلوب، ولتلك الرابطة التي جعلها الله بين أهل هذه الملة السمحاء العظيمة، ولأجل كل ذلك كان للمصافحة المقام الكبير، قال صلى الله عليه وسلم: ((**ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يفترقا**))[1].

على أنه إذا صافح الإنسان ذا شيبة بالإسلام أو والداً أو والدة أو ذا علم يستحب له أن يقبِّل يده مع المصافحة، كما كان الحال من هدي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم في أصحابه الأكرمين رضي الله عنهم وأرضاهم، ولقد كان يدخل ثابت البناني على أنس بن مالك فيقول أنس لجاريته جميلة: يا جميلة ناوليني طيبًا أمس به يدي فإن ابن أبي ثابت لا يرضى حتى يقبل يدي، يقول يدٌ مسَّت يدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، فيصافحه لهذه الحيثية، ويقبِّل بعد ذلك يدَه، فيستشعر في ذلك أن كفَّه قد لمس كفَّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم المحبوب لله بأسمى معاني المحبة، فكم يفيض على القلب من هذه العواطف والمعاني الرفيعة ما يفيض بواسطة تلك النيات الصالحة.

كما أن امتداد اليد لمصافحة أجنبياتٍ محرمٌ في الشريعة، مهما كان من دون حائل فذلك هو الأصل، فينبغي اجتناب ذلك والبعد عنه بل في الخبر عنه عليه

---

١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، أبواب السلام- باب في المصافحة (الحديث: ٥٢١٢).

٢) رواه أبو يعلى ، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء الجزء الرابع.

الصلاة والسلام: ((**لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيطٍ خيرٌ له من أن تمسَّ يدُه يدَ امرأة لا تحل له**))[1] أي من غير المحارم.

كل ذلك يبين أن هذه الشريعة في سعتها أحسنَت التنظيم لمسألة الحركات وانطلاقة الإنسان بأي عضو من أعضائه، فهو يعبر عن مملكةٍ واسعة بواسطة هذه الأعضاء المتصلة بالقلب. وكم ظلم الناسُ أنفسَهم بجهل العلاقة بين الأعضاء والقلب، وبتضييع بضاعة القلب الغالية التي بها تُكسى حركة الأعضاء بهاءً وجمالاً وقَدراً وشرفاً وكرامة، فالانطلاق مع الغفلة في هذه الحياة يؤدي إلى فسادِ كثيرٍ من خصائص الحركات، خصائص الانطلاقات بهذه الأعضاء، لأجل ذلك كان تذكُّر الإنسان لسننِ المصطفى عليه الصلاة والسلام مربوطاً بمعنى القرب من الرحمن، وبمعنى مصالح العباد والأمة، له الأثر الكبير في تتويج حركاته بغلاءٍ وقيمةٍ مخصوصة، ومن جملة ذلك ما يتعلق بالمصافحة التي يُبث بها الألفة والأخوة والمحبة ويُرفع بها الغل والشحناء.

اللهم ثبِّت أيدينا على الاستقامة على ما يرضيك، واجعلها لا تقدِّم لنا إلا ما يسرُّنا عندما نُلاقيك.. في يوم المآب يا رب الأرباب يا كريم يا وهاب.

وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

الدرس الحادي عشر

مقام تورُّع اليد عن أخذِ ما لا يحل

الحمد لله أبلغَ الحمدِ وأتمَّه على كلِّ حال، وصلى الله وسلم على المبعوث بالهدى والحق والنور والجمال، محمد بن عبد الله صفوتِه وعلى آله وصحبه خير صحب وخير آل، وعلى من تبعهم بإحسان، إلى يوم وضعِ الميزان.

أما بعد: فإن مجالات حركة اليد في عالم الإنسان ومملكته الواسعة مجالٌ واسع، وله أوجهٌ يحملها تؤدي إلى نتائج وثمرات كثيرة.. وقد تحدثنا عن أثرِ اليد في مسألة المصافحة من بعض وجوهها وجوانبها؛ كذلك شأن اليد في الكف عن أخذِ ما لا يحل صَغُر أو كبُر، قلَّ أو كثر، يضفي معنىً من معاني الروحانية وأنوار الإيمان التي تغمر القلبَ وهي التي تضيء عند انطفاء ضوء الشمس والقمر ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٧-٩] ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ [الحديد: ١٢] فمِن أعلى وأشرفِ ذلك ما يُكتَسب من نورانية الإيمان بواسطة كفِّ اليد عما لا يحل من كل ما تتمكن من أخذِه، من كل ما تتمكن من إدخاله في حسابها، من كل ما تتمكن من تغييبه عن صاحبه لتتمتع به بأي وجه من الوجوه.. فالكف عن ذلك علامة الإيمان ومثمرٌ لزيادته وسبب لرضوان الرحمن تبارك وتعالى.

التحذير من التساهل بحقوق الغير

التساهل بما تأخذه اليد من الشبهة والحرام سببٌ قوي لإطفاء نور الإيمان والوفاة على غير الإسلام والعياذ بالله. ولما احتُضِر بعضهم عند الموت جعل مَن عنده يقول له:

لا إله إلا الله فلم يستطِع أن يقولها، فإذا خاضوا في كلام آخر ربما خاض معهم، فلما تكرر ذلك منه، صاح بعض من حواليه وقال: لماذا تسكت إذا قلنا لا إله إلا الله!؟ وتتكلم بالكلام الآخر!؟ قال: كلما أردتُ أن أقولها أحسستُ بشوكة الميزان توضع على لساني فلا أستطيع أن أنطق بها.. وقد كان ذلك الرجل تاجرا، يزنُ البضائع ويبيعها للناس، وكان مما في قلبه من مرض يأتي لأمر يسير بسيط لكنه يشفي به غيظَ نفسه، وذلك أنه يتَعمَّد نفضَ التراب من على الكفة التي يضع فيها الأواقي ولا ينفخه عن الكفة الذي يضع فيها البضاعة، وكم يكون أثر هذا الغبار!! لكنه يشير إلى وصفٍ في القلب، وبهذا الوصف القلبي الذي أحب أن يأخذ من أموال الناس اليسير متهاوناً بذلك، ناسياً لعظمة المراقب له والذي حرم عليه أخذ الشيء من غير حلِّه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۞ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩-٣٠] فحُجِب عن قول كلمة الحق بذلك المرض القلبي الذي لن يظهر منه في عالم الحس إلا أنه يتعمد نفخ هذه الكفة ولا ينفخ الأخرى فكأنَّ ذلك تجمَّع عليه فأظلمَ قلبُه فحِيل بينه وبين كلمة الحق عند الموت.. فإذا كان الأمر بهذا الحال فكيف ما وراء ذلك!؟

ولقد جاء أن عيسى بن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام كان ممن أحياهم بعد الموت صاحب قبر، لما قام قال: أقامت القيامة؟ قيل لا! ولكن روح الله عيسى بن مريم دعا اللهَ فأحياك قال: لمَ أحييتني يا عيسى بن مريم؟ قال: نعتبر بك.. كم لك من حين مت؟ قال: سبعون عاماً، قال: فما وجدت؟ قال: كانت أعمالي صالحة

وتجاوز الله عني إلا أني حملت يوماً حطباً لبعض الناس فلما وصلت به إلى مكان وضعِه في منزله حضرني شيء بين أسناني فأخرجت منخاذاً فجعلت أتخلَّل به ثم رميته، فحوسبت كيف أخذتَ هذا المنخاذ من مال الغير، فلي سبعون عاماً موقوفاً معاتباً حتى يموت صاحب الحطب فيسامحني أو يأخذ حقَّه مني..

كل ذلك يدل على ما أشار إليه الحق بقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**من اقتطع حقَّ امرئٍ مسلم بيمينه، فقد أوجب اللهُ له النار، وحرَّم عليه الجنة**، فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا، يا رسول الله؟ قال: **وإن قضيبًا من أراك**))[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَن ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين**))[٢] مقدار الشبر الواحد الذي أخذه من أرض الغير يوضع على عنقه إلى سابع أرض فيحملها ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١]. قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس**))[٣].

وقد وجدنا أمثالَ الورع في تاريخ هذه الأمة والأمم السابقة من الذين تورعوا عن القليل والكثير خشية العلي الكبير، قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنا نَدَعُ

١) رواه مسلم في كتاب الإيمان- باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (الحديث:١٣٧)

٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق- باب: ما جاء في سبع أرضين (الحديث: ٢٠٢٣) ، ومسلم في كتاب المساقاة- باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (الحديث:١٦١٢).

٣) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة (الحديث:٢٥٦٨) وابن ماجة في كتاب الزهد- باب الورع والتقوى (الحديث: ٤٢١٥) والحاكم في المستدرك عن عطية السعدي وقال: صحيح الإسناد.

تسعةَ أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام[١]. كل ذلك يُبيِّن أن كسبَ اليد خطير في كل ما تأخذه من حقوق الغير، لذا وجب الاحتراز والاحتياط.

إن لذةً خفيفةً في ساعةٍ يسيرةٍ ذاهبةٍ لا توازي خزياً أمام الجبار في مخاطبته إياك كيف أخذت حق الغير قلَّ أو كثُر! فللعتاب والخطاب وحده ألم فكيف بالعذاب وكيف بأخذِ الحسنات!؟ لأجل هذا عبَّر النبي صلى الله عليه وسلم عن المفلس الذي يطلق أعضاءه في غير ميزان فيظلم الآخرين ويتعدى الحدود ويضيِّع الحقوق فتذهب جميعُ حسناته، وقد كانت كثيرة كأمثال الجبال من صيام وصدقة وصلاة وأعمال صالحات فتذهب أدراج الرياح، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مال هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا. فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيَت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه. ثم طرح في النار**»[٢] أطلق لسانَه أطلق يدَه فيما حرم الله عليه، وفي أخذِ حقِّ الغير فيأخذون من حسناته، فإذا فنِيت حسناتُه وبقي عليه شيء أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم أُمِر به إلى النار والعياذ بالله، فهنا تُعرف حقيقة إيمان الإنسان، وفي ذلك قالوا:

لا يغرَّنْك من المرء ... قميص رقَّعه
أو إزار فوق نصف ... الساق منه رفعه
أره الدرهم تعرف ... غيَّه أو وَرَعه

---

١) رواه عبد الرزاق في مصنفه.

٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم (الحديث: ٢٥٨١).

عند المعاملة بالدينار والدرهم يتبيَّن الأمر وحقيقته، وما يحمل هذا القلب من إيمان وورع وتقوى، وما يفقده من ذلك، عند الأخذ والعطاء، عند الدينار والدرهم.

قال سيدنا عمر بن الخطاب للذي أراد أن يزكي شهادةَ رجل ليخبر أنه عدل فتُقبل شهادته، قال له: هل عاملته بالدينار والدرهم الذي يُعرف به ورعُ الرجل؟ قال: لا، قال: هل رافقتَه في السفر الذي تُعرف به مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: هل جاورته فعرفتَ مدخلَه ومخرجَه؟ قال: لا، فصاح به عمر، لعلك رأيتَه قائماً قاعداً يصلي في المسجد يرفع رأسه تارة ويخفضه أخرى، فرد الرجل نعم!! فقال له عمر: اذهب فإنك لا تعرفه. ليس هذا هو الميزان لصدقِ الإنسان مع الرحمن ولا لحلول الإيمان في القلب.. ولكن اختار له ثلاثة أنواع: أولها المعاملة بالدينار والدرهم، وثانيها سفر ترافقه فيه تنكشف لك به صفاته، وثالثها مجاورة تعرف بها المدخل والمخرج.

الورع وسيلة لتحقيق رضوان الله

لِلتَّورع عن أخذِ ما لا يحل قدرٌ عظيم، وبابٌ كبير إلى تحقيق رضوان الله، وتحصيل النجاة في العقبى.. فيجب حفظُ اليد عن أخذِ ما لا يحل لها، صغُر أو كبر، قلَّ أو كثُر، وقد جاء في الخبر: ((**يا معاذ إن العبد ليسال يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه**))[1]. و نادى ابن عمر رضي الله عنهما: لو صليتُم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يُقبل ذلك منكم إلا بورعٍ حاجز، وفي الخبر: ((**يا أبا هريرة كن ورِعاً تكن أعبدَ الناس**))[2]. تكون عندك حقيقة العبادة فتكون

---

١) رواه ابن حاتم في تفسيره. وروى أبو نعيم في الحلية نحوه.

٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد- باب الورع والتقوى (الحديث: ٤٢١٧)

مِن أعبدِ الخلق بواسطة التورع عما لا يحل. فبذلك تقوم حقائق الإيمان، وتصفو المجتمعات، ويستقر الحال بالخلائق، ولا يزال الناس مختلفين في درجات إيمانهم الذي يحملهم على الكف عما حرم الله، وكلما انتبه الإنسان من القضية كلما نال المزية.

ولقد ذكروا في الأسر الصالحة في تاريخ هذه الأمة أن ربةَ البيت إذا خرج الزوج ليكتسب لهم المال لنفقتِهم قالت له: يا هذا اتقِ الله فيما تكسبه يدك وتُدخله إلى بيتنا فنأكله، فإنه يمكننا الصبر على الجوع ويمكننا الصبر على الظمأ، ويمكننا الصبر على العِري.. لكن لا يمكننا الصبر على النار، فإن أدخلتَ إلينا شيئاً من شبهة أو من حرام فأنت المسئول عنه وقد برَّأنا ذمتَنا أمام الله.. هذه وصايا النساء الصالحات للرجال الصالحين أيضاً. وهذه أحوال الأسر التي آمنَت.

فانظر إلى أنفسٍ تحب أن تأخذ ما بدر لها لا تبالي من أين جاء، والابن والزوج الممتاز الطيب الكريم الشاطر عندهم من جاء لهم بالمال على أي وجهٍ كان، ومن لم يبالِ من أي باب دخل عليه الرزق لم يبالِ الله به في أي وادٍ من أودية جهنم أهلكه.

اللهم ارزقنا التورعَ عما لا يحل، وارزقنا مراقبتَك فيما نأخذ وفيما نعطي، وكن لنا بما أنت أهله يا رحمن في جميع الشؤون ظاهراً وباطناً.

وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني عشر:

ضوابط الضرب وخطر القتل

الحمد لله العليم الخبير، نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ونشهد أن سيدَنا ونبيَّنا وقرة أعيننا محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، اللهم أدم صلواتك على المصطفى من خلقك سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار ومن سار في سبيلهم في الإسرار والإجهار.

أما بعد: فإن من جملة ما يتعلق بكسبِ الأيدي امتدادُها بالضرب للغير، الذي يؤدِّي إلى الألم وتضييع حقِّ الغير، وقد جاء في نظام الشريعة المطهرة ما يرتب قانونَ الضرب باليد في مملكة الأعضاء مع القلب في الإنسان، فنُظِّمت تنظيماً حسناً يرفع الإنسان عن فعل ما يسيء وما يشين وما يوجب السوء ويوجب التخالف والتنازع؛ ووُجِّهت اليد لأن تمتد بالضرب على كيفية مخصوصة لما ينفع، للتأديب، للتقويم، للتعديل، للإصلاح، للتقريب للخير للإبعاد عن السوء، ورتبت ذلك ترتيباً بأن يكون الضرب في غير الوجه، وأن يكون غير مبرِّح أي لا يكسر عظماً ولا يسيل دماً.

كل هذا الترتيب جاء في الشريعة لأن الحق تعالى عند الحكم بين العباد يأخذ أثرَ يدِ كل إنسان فيما مسَّ به جسدَ الغير بضربٍ أو أذى، ولذلك جاء في الخبر أن

الحق تعالى يقول: ((**أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخلَ الجنةَ ولأحدٍ مِن أهلِ النار عليه مظلمةٌ حتى أقتصه منه، ولا لأحدٍ من أهلِ النار أن يدخلَ النار ولأحدٍ من أهلِ الجنة عنده مظلمةٌ حتى أقتصه منه، حتى اللطمة**))[١]..

لأجل كل ذلك يقوم القصاص في القيامة إلى حدودٍ تتعدى المكلفين، قال صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح: ((**لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة. حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**))[٢].. فتُحوَّل قرون هذه إلى رأس الأخرى فتنطحها بقدر ما نطحَتها في الدنيا، فإذا كان هذا العدل من الله بين الحيوانات فكيف سيكون عدلُه بين المكلفين أهل الأسماع والأبصار والعقول والذين بُلِّغوا الرسالة وجاءهم الخبر عن الله تبارك وتعالى فتساهلَ أحدهم في حقِّ الغير؛ وقد جاء في سيرة سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنه لم يضرب بيده رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً إلا أن يجاهد في سبيل الله.

حدود الضرب في الشريعة

الضرب المأذون به في الشرع إنما يأتي للتأديب على الوجه المعلوم، وذلك بأن لا يبلغ أدنى الحدود[٣] وهو عشرين ضربة للعبد المملوك وأربعين ضربة للحر، بل

١) رواه أحمد بإسناد حسن ، والطبراني في الكبير.

٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم (الحديث:٢٥٨٢)

٣) وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي.

في القول الآخر لأهل العلم أن لا يتجاوز الضرب للتأديب عشرَ ضربات[١].. لأن المقصود تقويمٌ للنفس وتهذيب وتأديب، وليس المقصود هو الإيلام ولا الإيجاع ولا الأذى. فهذا الضرب وسيلةٌ من الوسائل تستخدم للمتعلم أو للابن أمام الأب، أو للولي أمام من هو موَلًّى عليه، كل ذلك بهذه الحدود التي لا تُتَجاوز.

إنما الحدود هي التي فيها الضرب إلى الأربعين إلى المائة كما هو مبيَّن في القرآن الكريم وفي السنة الغراء، فحدُّ مَن شرب المسكر أن يُضرَب أربعين ضربة ليكون ذلك زجراً له وإبعاداً له عن الوقوع في هذه الدناءة وهذا السقوط الذي يُغضب به ربَّه تبارك وتعالى ويفقد به خيرَ حياتيه، وفي الخبر: ((**من زنى أو شرب الخمرَ نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميصَ من رأسه**))[٢].

وقد ورد الانتباه من مسألة الضرب بتذكُّر القصاص، ولذا أُمر السيد إذا احتاج إلى تأديب العبد المتعجرف أو المؤذي أن لا يتجاوز به الحدود، وقد رأى صلى الله عليه وسلم أبا مسعود الأنصاري وهو مغضبٌ ويضرب عبده ضرباً قويًّا فكان يناديه من ورائه: اعلم أبا مسعود! للهُ أقدرُ عليك منك عليه، فالتفتَ فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله. فقال:

---

١) وهو مذهب الإمام أحمد لما روى أبو بردة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يجلد أحدٌ فوق عشرة أسواط، إلا في حدٍّ من حدود الله تعالى) متفق عليه.

٢) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة بإسناد صحيح.

((أما لو لم تفعل، للفحَتكَ النار، أو لمستك النار))[1] أي كان هذا العتق كفارةً لك، وإلا فلابد بعد هذا الضرب أن تحاسَب فتلفحك النار ولكن كفَّرت عن نفسك بعتق هذا الإنسان وإخراجه من الرق إلى الحرية.

فعُلم بذلك مستوى الضرب وكيف يكون الضرب، وأن الأمر مؤدٍّ إلى مجازاةٍ وقصاصٍ في القيامة؛ لأجل ذلك وجب الابتعاد عن الاغترار بالقوة والقدرة على الإيذاء، وأن تُسخَّر اليد للنكاية بالظالم المعتدي لصدِّه عن ظلمه وعدوانه، وللنكاية بالمعادي لله ولرسوله الضارِّ المؤذي المتعدِّي المعتدِي الصائل المجاوز الحدود الظالم للناس، فإنما تُراد قوة اليد لردِّ هذا الطغيان ولردِّ ذاك الظلم عن الناس، فتسييرها في غير ذلك يكون على الإنسان هوان وخسران، فيجب أن لا تُستعمل قوة اليد، فلا يضرب بها إلا فيما يكون فيه حراسةُ الخير والدين والمصلحة الحقيقية للناس، وذلك بالكف والزجر عن السوء والحمل على فعلِ الخيرات.

التنبيه على خطر القتل

إذا علمنا ذلك انتبهنا من مسألة انطلاق اليد التي ربما توصلت بعد ذلك إلى أمرٍ شنيع شَديد غريب، وهو أن تسفك الدم بواسطة ذلك الضرب بأي وسيلة، وليس في الذنوب والموبقات والمهلكات والكبائر والجرائم بعد الشرك بالله تعالى

---

١) رواه مسلم في كتاب الأيمان- باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (الحديث: ١٦٥٩). وأحمد الترمذي وأبو داود.

أعظم من القتل، قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، قتل النفس التي لا يحلُّ قتلُها، إلى حدٍّ أن قال عليه الصلاة والسلام **((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار))** قيل: فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **((إنه أراد قتلَ صاحبه))**[1]، فمات وهو في الحرص على قتلِ صاحبه فهو في النار والعياذ بالله تبارك وتعالى.

فالمسألة خطيرة لأن هذا الضرب يؤدي إما إلى تعطيل شيء من أعضاء الإنسان أو إلى قتله أصلاً.. قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣] وتأمل هذا الكلام وممَّن صدر يكفِك زجراً عظيماً بالغاً عن هذه المسألة الشنيعة حتى جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: **((لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يصِب دماً حراماً))**[2] فإذا أصاب الدم الحرام ضيَّق الأمرَ على نفسه والعياذ بالله.

فعلى المسلم أن ينتبه من انطلاقِ يده إلى أجساد الغير، فلا يحل له أن يتناول ضربَ أحد ولا مسَّه بألم إلا على تلك الحدود الشرعية في الأوجه المرضية بتلك المبادئ والترتيبات الإلهية، فحينئذٍ تستقيم اليد على أن تحسن ولا تسيء، في حالة العطاء للخير أو في حالة الضرب للتهذيب، تكون في كلا الحالين مُحسنة لا مسيئة، متعلقة بالنية الصالحة في الصلاح وفي إصلاح النفس البشرية والمجتمع الذي

---

١) رواه البخاري في كتاب الفتن- باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما (الحديث: ٦٦٧٢)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (الحديث: ٢٨٨٨).

٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الديات (الحديث: ٦٤٩٦).

تعيش فيه، فيترتب على التورُّع في مسألة إطلاق اليد لضربِ الآخرين خيرٌ كبيرٌ في ذات الإنسان، وفي المجتمع الذي يعيش فيه، ويُتجنَّب بعد ذلك ما وراء ذلك مما هو أشد حتى يصل إلى القمة في الذنب الذي اختُلف فيه أتُقبل التوبة من صاحبه أم لا؟ مع أن جميع الذنوب متفَقٌ على قبول التوبة منها حتى أفحشها وهو الشرك بالله، أفظع المعايب والذنوب كلها، لكن باتفاقِ العلماء أن من تاب عن الشرك إلى التوحيد وآمن بالله فهو مقبول، واختلف في قبول توبة من تعمَّد قتل المسلم هل تقبل أم لا؟ فبلغت الشناعة لهذه الجريمة هذا المستوى وهذا الحد!!

فوجبت الرعاية للحدود الشرعية والعناية بالضوابط في الشريعة المحمدية لانطلاق هذه اليد التي يكون لها الخبر في غد، وتُجزى ما كسبت ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

اللهم صُن أيدينا عن كل ما يوجب الفضيحة والعار وسوء المصير، واختم لنا بما أنت أهله يا حي يا قيوم وطهِّر لنا الأعضاء والقلوب وتب علينا لنتوب، بوجاهة نبيك محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار في سبيله ودربه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.. والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث عشر

رعاية ما يدخل البطن

الحمد لله القوي المتين، وصلى الله وسلَّم على عبده المصطفى الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن مما تنطلق فيه اليد تناولُها لأنواع المطعومات والمشروبات واستقبال البطن لذلك.. وجود الآثار بعد ذلك الظاهرة والباطنة على الجسم والروح والقلب، ومن هنا جاءت الشريعة في كمالها ببسطِ الأحكام والآداب بما يتعلق بالطعام والشراب، وترتَّب على ذلك قيامُ حصونٍ فيما يتناوله الإنسان تحُول بينه وبين الشبهات والمحرمات، واستمطار رحماتٍ من الحق فيما يقوم به من مراعاةِ تلك الآداب والقواعد في تناول ما يطعَم وما يشرب ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمده عليها. أو يشرب الشربةَ فيحمده عليها**))[١].

مراعاة الحلال في الطعام والشراب

تأتي الملاحظة الأولى فيما يتناوله الإنسان من طعام أو شراب أن يكون حلالاً، ومعنى أن يكون حلالاً أن يبعد من ورطات تسلُّطِ الهوى والشهوة، إذ تصل

---

١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء – باب استحباب حمدِ الله تعالى بعد الأكل والشرب (الحديث: ٢٧٣٤)

بالإنسان إلى الخيانة والظلم والعدوان والسوء والاعتداء على حق الغير، فذلك الخلل يقع من اختلال ميزان مراقبة الحق تبارك وتعالى.

فإذا شارك المؤمن مَن لا يؤمن في أن بعض التصرفات في أخذِ حقِّ الغير تؤدي إلى اضطرابٍ وخللٍ في المجتمع والمعاملة، فإنه يتميز عنه بأنه فوق ذلك كله يرتِّب عليه خللَ المستقبل كله، وخلل المصير الكبير الذي يصير إليه، بل ويوصله ذلك إلى غضب الإله الذي يؤاخذه عما كان منه.. ومن هنا جاء عن الإمام عبد الله بن المبارك أنه قال: رد درهم من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدَّق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف، فإن رد ذلك الدرهم من الشبهة دليلٌ على حقيقة الإيمان في القلب وخشية الرحمن جل جلاله.

ومن هنا تورَّع الإمام أبو حنيفة عليه رضوان الله عن أخذِ شيء من مالٍ كثيرٍ اقترن بشبهة خفيفة، وذلك أنه أرسل حُللاً كثيرة، وأخبر وكيله أنه يوجد في الحُلة الفلانية عيب فلا تبِعها حتى تبيِّن للمشتري ذلك العيب.. فلما وصلت وجد الوكيلُ مشترياً اشتراها جملةً واحدةً فنسي أن يبيِّن له العيب في المعيبةِ منها، وكتب إلى أبي حنيفة يخبره أنه قد باع الحُلل التي أرسلها بمبلغٍ كبير وكان فيه ربحٌ كبير، فأرسل إليه: هل بيَّنت للمشتري العيب في ذات العيب منها؟ فكتب إليه أني غفلت عن ذلك إذ قد اشتراها دفعة واحدة، فأرسل إليه: لا تُدخل شيئاً من جميع مبلغها، رأس مالها وربحها إلى تجارتي، بل أخرجه وتصدق به ولا تغش تجارتي بشيء من ذلك.

فلم يرضَ أن يأخذ مقدار رأس المال من هذه الحلل، لأنه اختلط رأسُ مالِها بربحها واختلط ربحُها بأن واحدةً ذات عيب لم يُبيَّن فاقترنت بمعنى من الغش للمسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**من غشَّنا فليس منا**))[1] فتورعَ عن ذلك المال كله خشيةً من الحق جل جلاله وتعالى في علاه.

إذن ففي تناول الأموال الذي يأتي من جملة غاياته ومقاصده أن يقدَّم الطعام ويؤخذ ويُشترى ليصل إلى الفم ليصل إلى البطن فتتكوَّن منه القوة واللحم للإنسان وفي الحديث الصحيح: ((**كل لحمٍ نبتَ من سحتٍ فالنار أولى به**))[2] فما جاءت آداب: أن اجلس على هيئة كذا، واذكر اسم الله تبارك وتعالى، وتأدب بأدب كذا إلى أن تنتهي من طعامك، واحمد الله.. إلا ليكون في الأمر أيضاً اتصال بتذكُّر أهو حلال أم حرام؟ وبالنظرة إلى ما يتناوله أهو على وفق الشريعة أو مخالفتها؟ كل ذلك يؤكد لنا عظمة هذا الدين في وجوب الاحتياط فيما نتناوله، فإنه لا تقوم حقيقة الإيمان إلا بالتورع عما لا يحل.

وبذلك جاءت سيرة الصحابة الأكرمين فمن تبعهم بإحسان بمعانٍ واسعةٍ من هذه الاحتياطات والاحترازات فيما يأخذون ويدَعون، وفيما يتناولون، إلى حدٍّ أن رُفع إلى ذي النون المصري طعامٌ وهو في السجن فاعتذر لمن أهداه إليه وقال: أعلم أن مالكم من حلال لكونكم أهلُ ورع، لكنه وصلني على طبق ظالم، يعني يد السجَّان، فأنا أحترز عن أكلِ ما وصلني على تلك اليد. وهذا من غير شك أمرٌ

---

١) رواه مسلم في كتاب الإيمان-باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " من غشنا فليس منا" (الحديث:١٤٣)

٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة، وهو عند الترمذي وحسنه بلفظ: لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به.

وراء الواجب وهو درجات عالية في الورع تليق بأهلها من ورع الصديقين وورع الأكياس من خيار الناس.

وقد كان لسيدنا أبي بكر الصديق غلام يخرج له الخراج، والخراج شيء يجعله السيد على عبده يؤديه إلى السيد كل يوم وباقي كسبه يكون للعبد، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فقدَّم له غلامه يوماً طعاماً، وكان جائعاً ومشتغلاً ببعض الأعمال فأخذه وأكل منه، فقال له الغلام: مِن عادتك أن تسألني قبل أن تأكل..من أين جئت بهذا الطعام؟ حتى تتأكد منه وتتورع فيه واليوم لم تسألني!! قال: كنت منشغلاً ولم أتذكر سؤالك فمن أين جئتَ به؟ قال: مررت على آل فلان وكان عندهم زواج فأعطوني ذلك وكانوا قد عرفوني من أيام الجاهلية إذ تكهنت لهم وما أحسن الكهانة إلا أني خدعتُهم، فلما قال هذه الكلمة أوقدَ من ورع الصديق رضي الله عنه ما تحرَّز به من أن أصل معرفتهم بهذا الشخص بسبب الكهانة في أيام الجاهلية، وإلا فإنه سيُعطى كما يعطى الغير ممن عُرف بأي سبب ومن لم يعرف لأن القوم عندهم زواج وعادة العرب الكرم والفرح بمن جاء وقت الوليمة وأن يعطوه، فقال: إنما أعطوك لمعرفتهم إياك من باب الكهانة فهو شبهة تدخل في بطني، فأدخل يده في فمه فقاء كل شيء في بطنه، حتى ظهر صوته وجاء بعض الجيران وقالوا: ما لخليفة رسول الله!؟ قال: طعام دخل بطني في شبهة لابد أن أخرجه، قالوا: فاستعن على ذلك بكثرة شرب الماء حتى يسهل لك خروجه، فأخرجه ثم بقي يستغفر عما بقي من الآثار في معدته منه، فقالوا له: كدت أن تهلك نفسك! قال: قد سمعت النبي يقول: «**كل لحمٍ نبتَ من سحت**

فالنار أولى به» وأنا أخشى أن ينبت لحمي بواسطة ذلك الطعام فتكون النار أولى بي، ولو لم يخرج إلا بخروج روحي لأخرجته.. رضي الله عنه وأرضاه[١].

التحذير من التهاون بالورع

كل ذلك يؤكد لنا أثر التربية التي خلَّفها رسول الله في هذه الأمة، والتي لا يجوز أن تضيع وتتفلَّت بما يُعرض علينا اليوم وبما يورد علينا اليوم وبما يُزيَّن لنا اليوم، وبما يزخرف لنا بمختلف الوسائل لنُستَتبَع ونكون أتباعًا لكل ناعق ونضيِّع قواعد ديننا وأسساً في ملَّتنا وهدينا وشريعة الله تبارك وتعالى، بل يجب أن تتيقَّظ ضمائر المسلمين أن وراء اليوم يوم، ووراء الحياة وقوفٌ ومحاسبة وأنه يمكنُهم أن يستفيدوا كل الخير مع الورع والاحتياط وفي الحديث: «**من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه**»[٢]، وأنه بمزاولة الأمور على غير وجه الاحتياط والورع تأتي إليهم النكبات، ويصابون بما أصيب به من لم يؤمن بالله تبارك وتعالى، والمؤاخذة عليهم آكد إذ قد خانوا عهدهم بعد الشهادتين وبعد إعطاء الميثاق والعهد، لذلك ينبغي أن ينظر الإنسان إلى ما يدخله بطنه، ويدخله بطون زوجته وأولاده وأهل بيته، حتى يكون ذلك على نصيبٍ من الحل.

---

١) أول هذه القصة رواها البخاري في كتاب فضائل الصحابة- باب أيام الجاهلية برقم ٣٩٢٠.

٢) رواه أحمد بلفظ: إنك لن تدع شيئا لله عز وجل إلا أبدلك الله به ما هو خير لك منه. والبيهقي في السنن الكبرى بلفظ: إنك لن تدع شيئا اتقاء الله إلا أبدلك الله به ما هو خير منه.

قد يقول كثيرٌ من الناس: إن الشبهات انتشرت، والمحرمات انتشرت، والربا انتشر!! نقول: مع كل ذلك لا يزال أمر الورع قائماً على الوجه المتناسب مع انتشار الشبهات في العصر والزمان، ومع كل ذلك فالفرق كبير بين من لا يبالي وبين من يبالي، وبين من يقصد الشبهاتِ غير عابئٍ، وبين من يحترز قدر استطاعته.

ومن الأمور ما هو حرامٌ صِرف، ومنها ما فيه شبهة ومنها ما شبهتُه أكثر ومنها ما شبهته أقل، والتفريق بين هذا من الفقه في الشريعة «ولو كانت الدنيا دماً عبيطاً لجعل الله قوت المؤمن منها حلالاً»[1].. فعلينا بقدر المستطاع أن نتجنَّب الحرام الصِّرف، ونتجنَّب ما الشبهة فيه قوية، ونختار ما هو أبعد عن الشبهة حسب المستطاع. والله يأخذ بيد الذي أراد الخير ويثبِّته.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهم الحقيقة وهي أن ما عند الله خيرٌ وأبقى وأن نقهر الأنفس وأن نُخضع المعاملات لأحكام الشرع المصون.

اللهم وفقنا لذلك وانشر الخير فينا ولنا وبنا ومنا وعلينا، ولا تكِلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحدٍ من خلقك طرفة عين، ولا تفتنَّا بما آتيتنا ولا بما زويت عنا .. يا أرحم الراحمين.

وصلى الله وسلم على المصطفى محمد وآله وأصحابه ومن سار في طريقه

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أورده الإمام الغزالي في الإحياء عن سهل بن عبد الله التستري.

الدرس الرابع عشر

رفعة اليد بسؤال الحق تعالى

الحمد لله أفضلَ الحمد وأتمَّه وأبلغَه على كل حال، وصلى الله وسلَّم على عبده الهادي محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: فإن في كسبِ يد الإنسان أوجهاً متعددةً لما يوجب الخيرَ له وفوزَه وسعادتَه.. والعكس كذلك؛ فوجب أن يُحسن التصرفَ بهذه اليد.

ومن جملة ذلك ما جاءتنا به الشريعة من الحذر من مدِّها لغير الله تبارك وتعالى طمعاً وطلباً للمُتع، وذلك بتقويم عزةِ النفس وعفَّتها على الوجه المطلوب الذي لا يؤدي إلى تعزُّزٍ يُخرج عن الحد بحيث يُكَفُّ عن طلبِ ما يضطر إليه أو يكون فيه المصلحة العامة للمؤمنين، ولا يكون جشعاً وطمعاً ولا إلحافاً وإلحاحًا.

ذم سؤال الناس

جاء التحذير من السؤال باسم الحاجة مع وجود نفقة اليوم والليلة، وأنه باسم الفقر والمسكنة لا يجوز سؤالٌ مع من يجد قوتَ يومه وليلته حتى يمضي اليوم والليلة ثم لا يجد شيئاً فيسأل بمقدار ما يكفيه في يومه وليلته. وورد أنه يأتي خدوشاً في وجه صاحبه يوم القيامة ((**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللهَ وليس في وجهه مُزعةُ لحم**))[1] أي قطعة من لحم، فيتساقط لحمُه كله ويذهب هدراً لأنه يكثر مدَّ اليد لغير الله تبارك وتعالى طمعاً وجشعاً.

---

١) رواه مسلم في كتاب الزكاة- باب كراهة المسألة للناس (الحديث: ١٠٤٠).

ولهذا جاء الأمر بالكسب الحلال وشُرعت المكاسب بالوسائل المتعددة المتنوعة، وفي ذلك اكتفاءٌ عن السؤال ومدَّ اليد إلى الغير وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام ((**اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**))[١]. واليد العليا هي المعطية والسفلى هي الآخذة ، من أجل ذلك التفت نظرُ الأكياس وتعلقوا بمدِّ اليد إلى رب الناس، وقال قائلهم:

لا تسألنَّ بُنَي آدم حاجة وسل الذي أبوابُه لا تُحجبُ
الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنَي آدم حين يُسأل يغضبُ

ومهما ألححتَ على الإنسان وأكثرتَ عليه ملَّك واستثقلَك مهما كان كريماً وأعطى أولاً وثانياً، ولكن رب العباد كلما سألتَه وألححتَ عليه زاد رضاً وزاد كرماً وإحساناً منه جل جلاله، قال صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله يحب الملحِّين في الدعاء**))[٢] فإنزال المؤمن حاجاتِه بربه مفخرةٌ له وربحٌ له وفوزٌ له.

وهو سبحانه وتعالى ييسر بعد ذلك قضاءها على يد من يشاء من العباد، لكن تعلُّقَ القلب بالله أساسٌ في النجاح والفلاح، وفي الحذر من الوقوع في شبكة نسبة الأشياء للناس نسبةَ استقلالٍ تحجب عن رؤية من يسيِّرهم سبحانه وتعالى.

والمُعطي رابح، أعطى أي سائلٍ كان، بحق أو بغير حق، ولا يزال للسائل حق ولو جاء على الفرس[٣]، ولكن من علم وأيقن أنه يصرف المال الذي يُعطاه في محرمٍ

---

١) رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى (الحديث: ١٣٦١) ومسلم في كتاب الزكاة– باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (الحديث: ١٠٣٤).

٢) رواه الطبراني وأبو الشيخ.

٣) إشارة إلى حديث (للسائل حقٌّ وإن جاء على فرسٍ) رواه أبو داود.

في الشريعة يجب عليه أن يكفَّ عن إعطائه فلا يعطيه، ومن لم يعلم ذلك منه فله الثواب في أن يعطيه، ولكن مع ذلك كله فالسائل ملومٌ إن سأل بكذبٍ أو سأل بزورٍ أو سأل بإظهارِ ما ليس فيه أو سأل باسم دَين ولا دَين عليه، أو باسم فقرٍ وهو يملك قوت اليوم والليلة.. إلى غير ذلك. وكل سؤالٍ جاء بتزوير وكذب فما يأخذه صاحبه هو حرام لأن من أعطيَ لأجل وصف وذلك الوصف ليس فيه كان ما يأخذه حراماً لا يجوز له أكلُه ولا التصرفُ فيه.

كرامة المؤمن في سؤاله لربه

يجب على الإنسان أن يكرمَ يدَه برفعها إلى الرحمن تبارك وتعالى في مختلف الحاجات، في مختلف الطلبات، فهو الغني الذي يفرح بسؤال عبده، ويعطي ولا يبالي، ويحب المُلحِّين في الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وكان شأن أهل الفطانة والأكياس من المؤمنين أنه لو تعلَّقت الحاجة كائنةً ما كانت بمخلوق في موطنٍ من المواطن أنزلوها أولاً بالله وسألوا الله وتوجهوا إلى الله، ثم ذهبوا إلى ذلك المخلوق فعرضوا الأمرَ عليه، مع كونهم معلَّقِي القلوب بالله تبارك وتعالى ثم لا ينسون شكرَه إن قضاها ولا ينسون عذرَه إن لم يقضِها، وبذلك كتب بعض الأكياس إلى مَن جعل الله على يده قضاء حاجة له فقال: إن الحاجة هي كذا كذا فإن قضيتَها فإن الله تبارك وتعالى هو القاضي والموفِّق لك وأنت مشكور، وإن لم تقضِها فإن الله تبارك وتعالى هو الذي لم يُرِد قضاءها وأنت معذور.. فبمثل الحال يصح التعامل وتصفو الأحوال ويصفو البال.

ولكن بالرعونات النفسية يأتي التشبُّث بأن فلانا أعطاني وفلانا منعني وفلانا زادني وفلانا نقصني وفلانا تسبَّب في حرماني، وينسى أنه وتسبُّباتهم تحت قدرة القادر وقَهرِ القهار، وأنه سبحانه وتعالى مهما سلَّط على أحد دواعي العطاء فلابد أن يعطي، ومهما سلَّط على أحد دواعي المنع منع، ومع ذلك كله فالإنسان مشكور فيما أعطى، وهو ملومٌ عما منع مما يقدر على صرفِه في الخير.

إلا أن تعلُّق القلوب بالخلق ونسيان الخلاق مُزرٍ لها،و يوقعُها في الأمراض وفي أنواع من الحقد والشحناء؛ على أن للناس توصُّلٌ إلى أغراض المال والدنيا بوسائل كثيرة تحمل كثيراً من الخداع والغش والكذب والزور.. فليعلم أصحاب الوصول إلى الأغراض المالية قلَّت أو كثرت بهذه الوسائل أنهم خاسرون حقيقةً في الدنيا والآخرة، ولن تمر السنين عليهم إلا وقد وجدوا مغبةَ ما استحسنوه أولاً، وكم ملء الدنيا من أمثلة! وكم من انكشافات وافتضاحات في الدنيا قبل الآخرة، وفي الآخرة بعد ذلك الأمر كبير وشديد ﴿ **يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ﴾[غافر: ١٦].

وجوب شهود العطاء من الله

وجب على كلِّ ذي إيمان أن يُنزل حاجاتِه بالرحمن، فإن احتاج إلى مخاطبةِ أحد فليكُن بعد توطينِ قلبِه على أن الأمرَ لله تعالى، وليقصده من باب أن الله جعله سبباً ووسيلة، ولا يملأ قلبَه تعلُّقاً به فهو ينسى نعمةَ الله عليه أمامه، أو يتحامل عليه لأنه يعتقد أنه الذي منع وكأن ليست له قوة إليها مرجعه، وكأن إرادة الحق تعالى لم تتناول ما يحصِّله هذا الإنسان وما لا يحصله.. ومن هنا قال الإمام الحداد:

الذي قُسِم لـك حاصلٌ لـديك — والذي لغـيرك لـن يـصل إليـك
فاشـتغل بربـك والـذي عليـك — في فرض الحقيقة والشرع المصون
أنـت والخلائـق كلهـم عبيـد — والإلـه فينـا يفعـل مـا يريـد
همُّك واغتمامُك ويحك ما يفيد — القضاء تقدم فا غنم السكون
لا يكثـر همُّـك مـا قـدر يكـون

وبهذا يصفو حالُ الإنسان مع الله تبارك وتعالى، ويصلح حالُه مع خلق الله، إذ شهد أن المعطي المانع على الحقيقة هو الله تعالى في علاه، وما كان لأحد أن يمنعك شيئاً لو أراد الله أن يصِلك، وما كان لأحد أن يوصل إليك شيئاً إن كان الله منَعك قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (فاطر: ٢) وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (النحل: ٧١) فالأمر إليه جل جلاله، وأوجهُ الطلب كما شُرعت وبُيِّنت لنا ينبغي أن لا نتجاوز فيها الحدود، وأن لا نصل فيها إلى خروجٍ عن الأدب مع الملك المعبود عز وجل، ولا إلى تحامُلٍ على الخلق في هذا الوجود.. ومن هنا كان في تعلُّق الهمة بالله تبارك وتعالى رفعةٌ للإنسان وعزَّةٌ وكرامة، وبعد ذلك يأتيه الخير.

وفي سيرة الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه أنه تأخر عليه ما اتفق مع معاوية بن أبي سفيان على إرساله إليه في كل عام لينفقه في أوجه الخير ويكرم به الضيف وغير ذلك.. فكثر عليه الدين وضاق به الحال فعزم على الكتابة إلى الأمير، فرأى جدَّه المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: يا ولدي أدعوتَ بقلم وقرطاس لتكتب إلى مخلوق مثلك!؟ قال: كان ذلك يا رسول الله ثم تركته، قال: لا تفعل،

قال: فما أفعل؟ قال: قل اللهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو أحدا غيرك، اللهم وما ضعفَت عنه قوَّتي وقصر عنه عملي ولم تنتهِ إليه رغبتي ولم تبلُغه مسألتي ولم يجرِ على لساني مما أعطيتَ أحدًا من الأولين والآخرين من اليقين فخصَّني به يا أرحم الراحمين. فقال: فألححتُ به فلم يمضِ إلا أسبوع فبعث إلي بأضعاف ما كان يعتاد إرساله إلي فرأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: هكذا يا ولدي من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوقين[١].. فيجب أن تتعلق الهمم بالله، وأن يُطلب الخير من الله تبارك وتعالى.

دخل هشام بن عبد الملك الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر، فقال: سلني حاجة، قال إني استحيي من الله أن أسأل في بيته غيرَه، فلما خرجا، قال الآن وقد صرتَ خارج البيت فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال من حوائج الدنيا، قال والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها[٢]!!؟

نتوجه إلى الله تبارك وتعالى أن يعلِّق قلوبنا به، وأن يكفَّ أيدينا عن امتدادها إلى ما لا ينبغي أن تمتد إليه، ونسأله سبحانه وتعالى أن يقذف في قلوبنا رجاءه ويقطع رجاءنا عمن سواه إنه أكرم الأكرمين.

وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه ابن عساكر.

٢) رواه ابن عساكر وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء.

الدرس الخامس عشر:

حماية النفس والأسر من المطعومات والمشروبات

الحمد لله الملكِ الجوادِ الكريم، وصلى الله وسلم على عبده الرءوف الرحيم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار في منهجه القويم، وسلك على صراطه المستقيم.

أما بعد: فإن في شأن الشبهات ووصولِها إلى البطون والأبدان، وأخذِ أيدي الناس لها أخطاراً وأضراراً لها قويُّ الآثار في الحياة وفي الحاضر وفي المصير، لأجل ذلك كانت حمايةُ البطون من دخول الشبهات إليها مظهراً من مظاهر الإيمان بالله ورسوله، وسبباً من أسباب النجاة والحفظ والحراسة للجسد والروح، ولسلامة الإنسان في الدنيا ثم في الآخرة. لذلك وجب الاحتراز أولاً عن المحرمات في ذاتها، مثل المسروقات والمغصوبات وما حُرِّم في حد ذاته كالميتة ولحم الخنزير والشراب المسكر؛ أو ما يكون تحريمُه طارئاً بسبب الكسب غير الصحيح.

كل هذا يوقفنا على الحِكم الإلهية في تحريمِ ما حرَّم الحقُّ علينا، وفي إنقاذنا من موجبات الشقاوة والسوء، فيجب أن ننصرف بعنايةٍ إلى تقويم التناول وما يدخل البطون من المطعومات والمشروبات، ونلاحظ ذلك في أسرنا وفي مَن لنا ولايةٌ عليه.

فيأتي الحذر من السرقة التي جُعل فيها الحدُّ شديداً في الشريعة لشدةِ ضررِها وخطرِها قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً

﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] ولما سُئل بعضهم أنه لو قطع إنسان يدَ إنسان فأراد القاطعُ الدية فكم يُعطى؟ قال: خمسمائة دينار، قال: فإذا سرق ربعَ دينار هل تقطع يدُه؟ قال: نعم، فقيل له: كيف تُقطع في ربع دينار ثم تكون ديتُه خمسمائة دينار!؟ فأجاب: إنما تقطع بعد خيانتها، وأما قطعُها من قِبل إنسان اعتداءاً عليها فلها الدية خمسمائة دينار، يقول المعرِّي في ذلك شعراً:

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وُديت ما بالها قُطعت في ربع دينارِ!؟

فقال القاضي عبد الوهاب مجيباً:

عِزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصَها ذُلُّ الخيانةِ فافهمْ حكمةَ الباري

قال ابن الجوزي لما سئل عن ذلك: إنها لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

جاء في الحديث: «**لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**»[1] قالوا والمعنى أنه يترقى من سرقة البيضة إلى أن يسرق ربعَ دينار بعد ذلك من حِرز مثله فتُقطع يده.

الابتعاد عن المحرمات أساس في النجاة

إن الابتعاد عن تلك المحرمات أساسٌ في السلامة والنجاة، وإقامة الأسرة على هذه المعاني يكون حمايةً لها من موجبات الشقاوة في الدارين، فلنَهتم بحمايةِ بطونِنا من أخذِ مسروقٍ أو مغصوبٍ مأخوذٍ ظلماً أو آتٍ لنا بأي وجهٍ من الأوجه

---

١) رواه البخاري في كتاب الحدود - باب لعن السارق إذا لم يُسَمَّ (الحديث: ٦٤٠١) ومسلم في كتاب الحدود- باب حد السرقة ونصابها (الحديث: ١٦٨٧).

المحرمة، أو كان محرماً في حدِّ ذاته، كما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به، كما حرم المسكرات، وكلَّ ما أزالَ العقل وأبعدَ الشعور من القلب فهو مسكر وهو خمر وهو حرام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((كل مسكر خمر، وكل خمر حرام))**[١].

وشُرب المسكرات سببٌ لنزع الإيمان من القلب، ولا يكون انتشارها إلا في بيئاتٍ غابت فيها رقابةُ الحق، غابت فيها حقائقُ الإيمان، غابت فيها التربية، غاب فيها التواصي بالحق والصبر، غاب فيها التواصلُ بمنهج الله وشريعة الله والنصيحة في الله تبارك وتعالى، وكم يتعرض لذلك أبناءٌ وبناتٌ من المسلمين في غَيبةِ آبائهم وغَيبةِ أمهاتهم عما يُعرض عليهم وعما يُساق إليهم، فيُساقون له وهم في غفلةٍ عن تنبيهِهم وعن تحذيرِهم وعن بعثِ ضمائرِهم وتقويم شعورِهم بأنه ليس في انسياقِ الإنسانِ وراء ما تشتهي نفسُه عزٌّ ولا كرامة، وإنما في قياس تلك المشتهيات بميزان الشرع فيما أُحلَّ وما حُرِّم، وأنه لا يُنتِج تناولُ المحرمات من المسكرات وغيرها إلا الشؤم وإلا اللؤم وإلا المرض وإلا التعب وإلا العذاب وإلا أنواعٌ من المشقات، هذا الذي يجلبه الانصياع وراء شهوة النفس أو مجرد تعلُّقِها بتناول شيء من تلك المحرمات التي بإهمال كثيرٍ من الآباء والأمهات وقعَ فيها أبناءٌ وبنات، إما بوسيلة ما يُعرض عليهم وسط البيت في القنوات وعلى الشاشات من تلفزيون أو إنترنت أو غير ذلك، وقد يكون الذي اشتراه الأب

---

١) أخرجه مسلم في الأشربة- باب: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (الحديث: ٢٠٠١) والترمذي وابن ماجه والنسائي.

بنفسه فتعلَّم به ولدُه تعلُّقاً بمخدرات أو بحبوب مُسكرات أو ما إلى ذلك، فكان هو الذي جنى على نفسه وعلى ولده بيده، وكان بطنُ ولدِه بعد ذلك مستقَرًّا للمحرمات التي ينتزع الإيمان عن صاحبها عند فعلِها كما صح في الحديث: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن**))[١] فلا يكون في وقت ذاك التناول على إيمانٍ قط، بل يُنتزع الإيمانُ من قلبه ثم قد يعود إليه وقد لا يعود.

وجوب حماية البيوت من الحرام

يجب ضبطُ الأسس في الأسر والبيوت حتى لا يتعرض الناشئة والشباب إلى الوقوع في تلك المحرمات ومعصية الله تعالى بالبطن والأيدي بتناول المسكرات أو تناول المحرمات، بل نرتقي إلى تحصينِهم من تناول الشبهات، وتناول ما فيه الاختلاف واختلاط الأمر والتباسُه، فقد علَّمنا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ((**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهاتِ فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى ألا وإن حمى الله محارمُه**))[٢] فهو سبحانه وتعالى يغضب ويغار أن تُنتهك حرماتُه التي حرَّمها.

---

١) رواه البخاري في كتاب الحدود - باب: ما يحذر من الحدود: الزنا وشرب الخمر (الحديث:٦٣٩٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله (الحديث: ٥٧).

٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب: فضل من استبرأ لدينه (الحديث: ٥٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (الحديث: ١٥٩٩).

يجب الاعتناء تماماً بشأن ما يدخل بطونَ الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأقارب والأسر ومَن يصِلهم الطعام على أيدينا، وأن نجعلَهم في حصنٍ من ذلك بسدِّ الثغرات التي تحملُهم على التفكير فيه، عبر المجالسة إما للأشخاص بالمباشرة أو عبر الشاشات أو عبر ما يقرءونه وما يستعملونه، فقد احتوشت المخاطرُ الناسَ من جوانبَ عديدة، وانتشرت أسباب ووسائل الاقتراب من المحرمات.

ومع ذلك كلِّه فالكل يُجمع على أن في هذه الوسائل إمكانيةٌ لتيسيرها وتسييرها في الخير ولكن قلَّ من يستعملها كذلك، فوجب أن تنتهض منا العزائم لأن نكون متحكِّمين في تلك الأجهزة ولا ندعها متحكِّمةً فينا، نأخذ منها ولا نمكِّنها أن تأخذ منا.. فإن أكثر الناس وقعوا في أن تأخذ منهم تلك الوسائل ولا يأخذوا منها؛ أخذت منهم أغلى ما عندهم، أخذت عليهم قيَمَهم، أخذت عليهم أخلاقَهم، أخذت عليهم أديانَهم، أخذت عليهم أولادَهم، أخذت عليهم زوجاتِهم، أخذت عليهم أقاربَهم، أخذت عليهم أغلى ما عندهم مِن القيم والمُثل.. وماذا أخذوا منها!!؟

وما رأينا في واقع المجتمعات أن مشاكلَ حُلَّت بسبب ما شُوهد في الشاشات هذه أو اطُّلع عليه في أكثر تلك المجلات التي تحمل الخلاعة والبذاءة، وإنما يكون حلُّ المشاكل بجُهد المخلصين والصادقين وباستماع أخبارِ الحق ورسوله ودروس العلم النافع. فانظر إلى خديعة العقول بأننا نتعلم من بعض تلك المسلسلات -التي تحمل السوء لنا- حلَّ مشاكلنا، والواقع أننا نتعلَّم بها إيجاد المشاكل لا

حلولَها. فوجب أن نتحكَّم في الآلات والأجهزة، ولا ندَعها تتحكَّم فينا، ولا ندَع ما يُعرض فيها يأخذُ منا.. بل نحن نأخذ منها ما يفيد بقوة عزيمةٍ وحزمٍ في التصرف في تسييرِ أمرِ الأسرِ والأبناء والبنات؛ فإن المسئولية كبيرة، والأمر راجع أيضاً إلى حقيقة المصلحة وحقيقة المنفعة لهم، وكل ذلك يحتاج منا إلى إيجادِ قاعدةٍ من التربية في القلوب تيسِّر لهم أخذُ التوجيه منا بفرح بسرور بطمأنينة.

فيجب الاعتناء تماماً بما يدخل بطون أبنائنا وبناتنا، ومن ذلك أن نُجنِّبهم ما فيه المواد الضارة، الكيماوية وغيرها، فضلاً عن المُشتبه فيها، وكثيراً ما يختلط ذلك بمحتويات كثير من المطعومات الآتية من قِبل من لا يبالي بتناول المحرمات، فيكون فيها من الدهون مثل شحم الخنزير أو غيره من المحرمات في الشريعة؛ فلنكن على بصيرة، ونعلم أن الأمر أكبر من شوكولاته يأخذها الواحد منا أو شيء من المشروبات يتمتع بها ثم لا يبالي بمحتوياتها وما يكون فيها، فإن المسألة أكبر من مرادٍ أو شهوة.

نسأل الله أن يأخذ بأيدينا إلى ما به يصلح ظواهرنا وبواطننا، ونسأله سبحانه وتعالى أن يقذف في قلوبنا رجاءه ويقطع رجاءنا عمن سواه.. إنه أكرم الأكرمين.

وصلى الله على المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس عشر:

ميزان الجدل ومقاصده

الحمد لله رب العالمين الملك الكريم الجواد، وصلى الله وسلَّم على المبعوث رحمةً للعالمين حبيبِه محمدٍ خيرِ العباد، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، ومَن سار على سبيلهم إلى يوم الوقوف بين يدي الملك الغفار.

أما بعد: فإن من أهمّ واجبات المؤمن في هذا العالم أن يكون حسَنَ الإيراد للقول الذي يصدرُ من لسانه المتعلق بقلبه وجنانه، ولنأخذ منه مجالاً يتعلق بشأن المراء والجدال الذي يحتاج إلى نظرٍ دقيقٍ في فهمِ ما يفيد منه وما يضر.. وأكثرُه ضار؛ وما يقرِّب منه وما يباعد.. وأكثره يُباعد.

من آفات اللسان المراء والجدال:

من جملة آفات اللسان المراءُ وهو إظهار الاعتراض على قول الغير احتقارا له؛ والجدال وهو الدفاع عما قاله أو اقترحه بعد ظهور بطلانه، وكل ذلك إذا تأملنا التوجيهات الإلهية والنبوية نعلم أنه في أكثر الأحوال ينبغي اجتنابُه، وفي نادرٍ من الأحوال يُحتاج إليه ليكون سبباً للبيان وردعِ موجبِ الافتتان؛ كل ذلك جاء في أمرِ الله بإتباع الأحسن عند الاحتياج إلى الجدال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومتى يكون الجدال بالتي هي أحسن؟ من غير شك أنه ليس جدال التشفِّي، ولا جدال الحطِّ من منزلةِ الآخر، ولا جدال العصبية، ولا جدال الازدراء، ولا جدال نيلِ الغرض القاصر والفاني والدنيء، ولكنه جدالُ حسنِ البيان عن الله بتفنيدِ مزاعم ضالٍّ وصاحب شبهة يعرضُ شبهاتِه على الناس. وفي هذا الجانب أُمِر أن يكون الجدال بالتي هي أحسن، بأن يكفَّ اللسان عند الجدال عما يخرج عن القصد الأصيل، الذي هو إقامة الحجة وبيان الدليل وإنارة السبيل للمستبصر في السعيِ إلى الملك الجليل؛ وحينئذٍ يفيض علينا مِن فهمِ هذا الجدال أنوارُ السنة النبوية وكيف خاطب صلى الله عليه وآله وسلم؟ وكيف جادل أهلَ الكتاب أو المشركين أو سواهم؟ وعلى ماذا انطوَت كلماته؟ وعلى ماذا انطوت بياناته؟ وهل فيها شيء من السباب؟ هل فيها شيء من موجبات النفرة الإنسانية بواسطة تجاوُز الحد أو الاعتداء؟ بل الأمر فيه فتحُ أبواب التراجع للمستبصر والمُنصف ولطالب الهدى والحق، لذلك جاء التصريح عنه صلى الله عليه وسلم **((إني لم أبعث لعَّانا، وإنما بعثتُ رحمة))**[1] وقال صلى الله عليه وسلم: **((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء))**[2] فتمَّت المجادلات على مثل هذا الحال، فكذلك يجب أن يكون الحال حتى في مجادلة الكفار.

---

١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (الحديث: ٢٥٩٩)

٢) رواه الترمذي في أبواب البرِّ والصلة عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم- باب ما جاء في اللَّعنة (الحديث: ٢٠٤٣) وأحمد في مسنده والبخاري في الأدب وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود.

فكيف يُتسوَّر بعد ذلك على جدال المسلمين بالعنف والشدة أو الرمي بأشنع الأشياء، وهو الكفر والشرك بالله، كل ذلك لمخالفةٍ في الرأي أو في النظرة، وكل ذلك في عصبيةٍ وفي غلوٍّ وفي تعالٍ؛ وهذا هو الجدال العقيم الذي يكون علامةَ الضلال كما جاء في السنة: ((**ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**))[1].

لذلك جاءتنا العبادات بتعليم إقامة الموازين في مسألة البيانات حتى لا تتحول الجدالاتُ من التي هي أحسن إلى سوءٍ من الأسواء، فجاءنا في الصوم مثلاً الأمرُ بالكفِّ عن الجدال والسباب والخصام ((**إذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم**))[2] تعليماً للأمة أن تكون غالبةً على الدوافع الجدلية لا أن تتغلَّب عليها دوافع الجدل، حتى لا يلجئوا إلى الجدل إلا في محلِّه على الوجه الصحيح المرضي للرب تبارك وتعالى.

التحذير من الخروج عن أدب الجدال

أكثر ما يدور بين فِرقِ المسلمين خارجٌ عن حد الاعتدال وعن الأدب في الجدال، وبعيدٌ عن إدراك أدبِ الخلاف، لهذا تجد كم من متجرئٍ يكيل السباب، أو يرمي بالبدعة أو بالكفر أصنافاً قد يكونون خيراً منه في أدبهم مع الله أو في التزامِهم بسنةِ رسول الله، لكن على غير الوجه الذي علِق في ذهنه، والتصور الذي تصوره من

---

١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي أمامة.

٢) رواه البخاري في كتاب الصوم- باب: هل يقول إني صائم إذا شتم (الحديث: ١٨٠٥) ومسلم في كتاب الصيام- باب: فضل الصيام (الحديث: ١١٥١).

خلال ما وقع في قلبه عبر ذاك الكتاب أو ذاك الشريط أو ذاك الإنسان، وليس في الكتب ولا في الأشرطة ولا في الناس الذين يقابلهم معصوماً ولا مقطوعاً بصحةِ ما يقول، ولكن المسألةَ أوسعُ من ذلك، ويمكنه أن يُحسن النظرَ ويأخذ من أقوال أهل القرون الأولى وتابعيهم بإحسان ما يبيِّن له الحقيقة في الأمر، ولكن التسرُّع والتعصُّب الذي يطوي فيه الشيطان الحيلةَ على الإنسان ليوهمه أنه غاضبٌ لله، وهو غاضب لمفهومه الخاطئ أو لنظرته القاصرة لا لله تبارك وتعالى، إلى حدٍّ أن يزيِّن له استحلالَ عِرضِ الآخر وربما دمَه ومالَه، كما حصل لقوم قاتلوا من خيرة الأمة أصحاباً لرسول الله من السابقين الأولين الذين أُمِرنا بمتابعتهم بنص القرآن ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠] والأغرب من ذلك أن استدلوا بآياتٍ نزلت فيمن كان يؤذي هؤلاء السابقين بسبب إيمانهم بالله، فيأتون إلى الآيات التي نزلت في الذين ضادُّوا وعاندوا فيصرفونها إلى الذين قوتلوا وأوذوا من أجل التوحيد والإيمان، فينسبونهم إلى شيء من الكفر أو من الشرك أو من الضلال، حتى استحلوا قتالَهم واستحلوا دماءهم وأموالهم والعياذ بالله!!

وكل هذا يبين وجوب الحذر من خطر الافتتان والتولُّع بالجدال والتحكيم للمفاهيم، ويجب أن تكون النظرة سليمةً عند أهل الملة فيما يتعلق بالمذاهب المتعددة والاتجاهات الموجودة في الدين، وما كان أصلُه الأصول الثوابت في دين

الله تبارك وتعالى فهو متَّحِد، وما يحصل من التخاصم إلا نتائج الجهل من الأتباع الذين لم يدركوا الأصول ولا المنهج الأصيل الذي مضى عليه أئمة مذاهبهم.

رعاية آداب الاختلاف

إذا علمت ذلك كان الأمر واضحاً في أنه يقوم خلافٌ صحيح لا يوجب اختلافَ القلوب ولا نزَعات تعصُّب من خلال النظر من المؤهَّلين للنظر في شيءٍ من النصوص ليفهموا شيئاً من دلالات النص، فيأتي بذلك اختلاف النظرات لحكمة من الله لسعةِ الشريعة المطهرة، واختلاف حاجات الناس وأصناف ما يوجب إصلاحَهم، كل ذلك يقوم بسببه وجوهٌ في النظر في النصوص الثوابت تتفرع عليها المفاهيم كما كان بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم دون أن يلمز أحدٌ منهم الآخر أو أن يعيب عليه وأن يعتبر أن ما وصل إليه وهو المؤهل للنظر باطلٌ أو مخالفٌ للنص مع نظرة الآخر وأخذِه لمفهومٍ آخر، والكل راجعٌ إلى نصٍّ واحد، ولذلك أمثلة كثيرة في حياتهم وفي حياة مَن بعدهم مِن التابعين وتابعي التابعين من الذين أخلصوا وصدقوا مع الله وتحلَّوا بحليةِ الأدب في الشريعة.

من الواجب المتعلق بمملكة الأعضاء والقلب أن لا يُتَّخذ الاختلافُ في الرأي الفرعي سبباً للبغضاء، وأن نفقه أنه من سعة الشريعة بدَت مذاهب الهدى ومذاهب الحق التي ليس لها مرجع إلا الثوابت من النصوص الصريحة ومن دلالات النصوص المحتمَلة من الكتاب والسنة وإجماعِ من مضى من الصحابة

والتابعين فمَن بعدهم. وعلى هذا الأساس تتَّسع الصدور، وعلى اتساع الصدور تنضبط الكلمات، وينضبط إرسالُها في كلامِ كلٍّ عن الآخر أو في توجيه كلٍّ للآخر، وتجتمع القلوب على الثوابت والأصول التي لا تتغير ولا تتزعزع.

وإذا كان الأمر واسعاً بين كثير من الناس.. فيجتمع المسلمون وغيرهم لمحاربة أنواعٍ من الفساد يجمعون على وجوب حربها، فكيف بين أهل الملة الواحدة أنفسهم!؟ إن أمامهم ما يمكن أن يجتمعوا عليه ويبذلوا جهودهم متعاونين لإقامته في نشرِ فضائل، وفي البعد عن رذائل، وفي توجيهاتٍ لإقامة الأوامر واجتناب النواهي والتعاون على مصالح المجتمع وقضاء حاجة المحتاج إلى غير ذلك من الأمور المجمَع عليها، فهي جامعة لهذه الأصناف لا يجوز لهم أن يهملوها وأن يجعلوا الاختلاف في بعض المسائل الفرعية سبباً للتباعد ولا سبباً لنزول اللسان عن حدِّه في مقابلة الآخر والكلام معه أو الحديث عليه.

نسأل الحق أن يثبِّت في قلوب المؤمنين إدراكَ واجب الأدب معه في رعاية حقوق الآخرين ومعرفة الفضل لذوي الفضل، ووجود احتمال الحسن في المصير لكل مَن سوانا من أهل الملة، وبكل ذلك نتحلى بحليةِ أدبٍ ترتفع بها عنا نزعاتُ الاختلافات ويستقيم بها اللسان في الكلام عن بعضنا البعض.. ثبَّتنا الله على ما يحب، وجعلنا فيمن يحب ودفع الأسواء عنا.

وصلى الله على المصطفى محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع عشر

تشارك الأعضاء مع القلب في اكتساب الملك الأكبر

الحمد لله رب العالمين، له الحمد في كل حالٍ وشأنٍ وحين، لا إله إلا هو منه المبتدأ وإليه المصير، أرسل إلينا بالهدى عبدَه البشيرَ النذيرَ والسراج المنير، محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه كما تقدم في شأن مملكة القلب والأعضاء أن لليدِ مجالاً واسعاً في الكسب، ويقوم عليها الأخذُ والعطاء. وتعرَّضنا لذكرِ تصرُّفها في الامتداد على الغير، وأنها تتعرض بذلك للقصاص يوم القيامة، وأن الله لا يترك اللطمةَ فما فوقها، وأن ذلك الضرب ولو لغير الآدمي لأي حيوان من غير حقٍّ يكون دَيناً على الآدمي يُقتَص منه يوم القيامة، إذا كان يُقاد للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء، من الحيوانات بعضها البعض فكيف بالمكلف ولو مع الحيوان إذا آذاه. فقد صح في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**عُذِّبت امرأة في هرةٍ سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمَتها ولا سقَتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**))[1]. فكل ما كان من الإنسان ولو أمام الحيوان من ضربٍ لم يأذن له به الله يكون محسوباً عليه، ويُخاطَب في شأنه، ويؤخذ منه الحق.

---

١) رواه البخاري في كتاب المساقاة (الشرب) باب: فضل سقي الماء (الحديث: ٢٢٣٦)، ومسلم في كتاب السلام- باب: تحريم قتل الهرة. وفي كتاب البر والصلة والآداب- باب: تحريم تعذيب الهرة ونحوها (الحديث: ٢٢٤٢).

أمام كل ذلك يأتي مقدارُ وثواب الضرب في سبيل الله تعالى، وقد تقدم معنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب بيده رجلاً ولا امرأةً ولا صغيراً ولا كبيراً إلا أن يضرب في سبيل الله، إلا أن يجاهد في سبيل الله.

ويترتب على هذا الاكتساب العظيم لليد المثوبةُ الكبيرة العظمى، لأنه يقوم مقامَ تحقيق العبودية بالتضحية وفاءاً بعهدِ الله، وتقديم الروح طمعاً في ما عند الله، على خلاف ما تهوى النفس وتشتهيه، فهذا المُؤثر لربِّه المقدِّم روحَه في نصرته مهما أخلصَ وصدقَت نيتُه في ذلك كان ما تكسبه يدُه سبباً لاعتلاء درجاته ورِفْعَةِ مكانته أمام الحق جل جلاله.

توافق استعمال أعضاء المملكة يوم الفرقان

ونأتي في استعمال الأعضاء العين والأذن واللسان واليد والرجل ثم البدن كله لهذا الميدان وهذا السبيل، ونرى كيف قام الأمر على وجهه في مثل غزوة بدر الكبرى التي كانت في شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية، ودارت رحى المعركة في يوم السابع عشر من رمضان، برزت شمس النبوة بمقابلة الصادِّ عن الحق والمعتدي والمضطهد والظالم والطاغي بتلك المُثُل السامية والحزم والصدق والإخلاص والآداب؛ فانظر إلى تكاتف عملِ الأعضاء في مملكة هذا الإنسان، القلب مع اللسان مع السمع مع البصر مع اليد، وما تمَّ من اكتسابات بسببها مع الرِّجل ثم الجسد كلِّه في تلك السيرة العظيمة وتلك الذكرى الفخيمة..

ذكرى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.. الذكرى التي امتلأت بالعِبر والدروس لكل مَن زكت لهم النفوس.. الذكرى التي أرت الأمةَ كيف يكون الصدق.. كيف يكون الإخلاص.. كيف يكون الأدب.. كيف يكون الحياء.. كيف يكون حسن التعامل.. كيف يكون التواضع.. كيف يكون الحلم.. وفي المقابل مظاهر الغطرسة ومظاهر العدوان والغرور والكبرياء.. ونهاية كل ذلك.

فنجد أن الدرجات العُلى كان مما اكتسبتها الأيدي لأهل بدر التي تعاونت فيها أعضاء هذه المملكة مع رئيس المملكة وهو القلب، فتوجه الصادقون المخلصون يريدون وجهَ الله، فكانت تلك المشاهد العُلى؛ ورأينا كيف عرضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمرَ على الناس بعد أن فاتت العِيرُ وأخذ الجيش يقبل لمواجهتهم، وتكلم أبو بكر فأحسن، وعمر فأحسن، وقال المقداد: يا رسول الله والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والله لنقاتلنَّ مِن بين يديك ومِن خلفك وعن يمينك وعن شمالك.

فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنار وجهُه، ولكن أعاد الأمر يقول: أشيروا عليَّ أيها الناس، ففطنَ لها سعدُ بن معاذ الصادق المخلص ذي الهمة القعساء، ذي الإيثار لله ورسوله، فَطِن لها وقال: كأنك تعنينا معشر الأنصار يا رسول الله، فقال في كلماته العظيمة الكبيرة واسعة المعنى: يا رسول الله آمنا بك،

وصدَّقناك وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامضِ لما أمرك الله، ولقد تخلَّف عنك أقوامٌ ما نحن بأشد محبةً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك، ولعلك أردت أمراً فأراد الله غيرَه، فامضِ فو الله لو سرتَ بنا حتى تبلغ بركَ الغماد من الحبشة لسِرنا معك ما تخلَّف منا رجل واحد، ولو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك، وما نكره أن نلقى عدوَّنا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، فاستنار وجهُ رسولِ الله كأنه قطعةُ قمر فقال: **سيروا وأبشروا ما يسركم فإن الله وعدني إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**[1].

طابت الرئاسة فطابت الأعضاء

توالت في هذه الغزوة عجائب من تلك الاكتسابات بهذه المملكة التي طابت رئاستُها فطابت المملكةُ برعيَّتها وأعضائها أجمعين، فكان الذين حضروا الغزوة خيارَ أهل الأرض، في تلك الحقبة من الزمن.. وقد جاء في الخبر أن سيدنا جبريل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدُّون أهلَ بدر فيكم؟ قال: ((**من أفضل المسلمين**)) أو كلمة نحوها، قال: ((**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**))[2]. فأعلى الله لهم القدرَ لحضورِهم مع نبيِّه صلى الله عليه وسلم، فكانت عجائب تلك الغزوة بما فيها من معجزاتٍ وآياتٍ وإقامة العبودية لرب الأرض والسماء. ومن

١) رواه ابن إسحاق في مغازيه، وله شواهد في الصحيحين وغيرهما.

٢) رواه البخاري كتاب المغازي- باب: شهود الملائكة بدرا (الحديث: ٣٧٧١).

جملة ذلك ما يتعلق باللسان كثرة الدعاء والابتهال وهو مرتبطٌ بالجنان وما كان الدعاء هو العبادة[1] إلا لأنه يجمع القلب على المدعو، وهو الله تبارك وتعالى، وكان الدعاء مُؤذِناً باعتراف الإنسان وإذعانه وافتقاره إلى ربه تبارك وتعالى، فكان سبباً لنصرة الله ورحمته، قال تعالى في ذكرِ هذه الغزوة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فجعل حيثيَّة الإمداد بالنصرة وجود تلك الاستغاثة الدالَّة على انكسارِ القلوب وخضوعِها لربها، فتوجه القوم على الصدق والإخلاص لله حتى وصلوا إلى الساحة، وحدد رسول الله مصارعَ القوم معجزةً من معجزاته، وقد بات بعد ذلك طوالَ الليل وهو يدعو ويُلِح على الله بالدعاء، ولذلك من خير ما استُعملَت فيه الألسنُ دعاء الرحمن، فينبغي الإلحاح على الله، وكثرةُ الطلب منه، والتضرع والابتهال إليه تبارك وتعالى.

أثر استقامة الرئاسة في مملكة كل فرد

إذا علمنا ذلك فإن الأمر منوطٌ باستقامة الرئاسة في مملكة كلِّ فرد منا.. فكل فرد منا مملكةٌ تؤديه إلى الملك الدائم العظيم أو إلى الخسران الدائم المهين والعياذ بالله، فصفِّ مجلسَ الرئاسة -وهو قلبك- عن الكدر الذي يصيبه فينتشر إلى جميع الأعضاء، وانظر إلى أحوال هؤلاء الذين صفَت قلوبُهم لله.. فهذا عُمير بن الحمام بعد أن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(**قوموا إلى جنةٍ عرضُها**

---

١) حديث الدعاء هو العبادة رواه أحمد في مسنده وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب والأربعة [أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجه] وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن النعمان بن بشير.

السماوات والأرض) قال: يا رسول الله! جنةٌ عرضُها السماوات والأرض؟ قال (نعم) قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(ما يحملك على قولك بخ بخ؟)** قال: لا. والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: **(فإنك من أهلها)** فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة، فرمى بما معه من التمر. ثم قاتل حتى قُتل[1].

يا أهل الآمال في دار الزوال: استطال صاحب الصدق مع الكبير المتعال التأخر حتى يُتِم أكل التمرات في كفِّه، مما ذاق، ومما عرف.. فانظروا ما حدث من ذلك القلب لم قال هذا؟ قاله بعد أن سمع نداء الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.. فكان من الأربعة عشر الذين استشهدوا يوم بدر رضي الله عنهم، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

اللهم ارزقنا الشكر، واستعمال الأعضاء في ما يقرِّبنا إليك، وأعِذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأحسِن اللهم لنا العقبى والوفادة عليك.. برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على المصطفى محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه مسلم في كتاب الإمارة- باب ثبوت الجنة للشهيد (الحديث: ١٩٠١).

الدرس الثامن عشر :

سمو الأمنيات والمقاصد

الحمد لله ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَىۡءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (غافر: ١٥-١٧) نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أحسن بلاغَ الرسالة وأداءَ الأمانة وإقامة الحجة، ودعا إلى الله على بصيرة فأجابه بالإذعان من كانت له بصيرة منيرة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه في جملة ما يجري لهذه المملكة الكبيرة مملكة قلب الإنسان وأعضائه، شأنٌ يحلُّ في القلب، تنبعث له الأعضاء طواعيةً في تحقيقه وذلك هو المراد.. والمراد والمقصد والغاية والأمنية إذا سمَت وارتقَت واعتلَت وارتفعَت تهيأت هذه الذات للارتقاء والارتفاع والاعتلاء والسمو.

آثار التعلُّق بالمقصد الأعظم

ونحن في مثل ما أشرنا إليه في الدرس السابق من الواقعة العظيمة في يوم بدر الكبرى نستجلي هذه الحقيقةَ واضحةً جليةً في ذلك السمو الذي حلَّ في قلوب القوم في مقاصدهم وأمانيهم، ونأخذ منه كيف يجب أن نسمو بأمانينا ومراداتنا

في أنفسنا وأهلينا وأسرِنا، ونشاهد أين ضاعت الأمنيات والمقاصد منا.. إن الذين عرفوا المقصدَ الأعظمَ لم يرتضوا أن ينحطَّ مقصدُهم لما هو دونه فتعلَّقوا بالمقصد الأسمى، فسمَوا لذلك رضي الله عنهم وأرضاهم.

ونجد معاني فيما قال المقداد، وفيما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه، وفيما قال عمير بن الحمام.. نجد المعاني واصلةً إلى قلوب الناشئة المبتدئين، منهم الذين هم في أول الشباب نحو الخامسة عشر من العمر، فنجد أمثال الغلامين الصغيرين في السن، الكبيرين في سموِّ المقصد وعلوِّ الأمنية، يكونان بجانب عبد الرحمن بن عوف، وهما معاذ ومعوذ ابنا عفراء، يقول عبد الرحمن: لما اصطففنا للقتال في الجيش نظرت فإذا عن يميني غلام صغير، وعن يساري غلام صغير، فكأني لم آمَن بمكانهما، فما شعرت إلا بمن على يميني يناديني ويسارُّني: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، قال: سألتك أن تريني إياه إذا بدا لنا في المعركة، قلت: وما حاجتُك إليه يا ابن أخي؟ قال: لقد بلغني أنه كان يؤذي رسولَ الله، والذي نفسي بيدِه لئن رأيتُه لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجلُ منا.. فعجبت من إيمانه وقوة عزيمته.. وإذا بالثاني يدعوني وسألني نفس السؤال، وأجابني بنفس الجواب. فما أحب أن مكانهما رجلين جلدين ضخمين.. فانظر إلى سمو المقصد، ليس بينهما وبين أبي جهل مصلحةٌ دنيوية ولا غرضٌ من الأغراض الفانية قط، ولكنه محبة الله ورسوله، العبودية لله، إنقاذُ الإنسانية من المجترئين بأنواع الشرور والمعاداة التي لا مبرِّر لها للخير الواضح والحجة القاطعة والنور الساطع،

والتأليب على ذلك، واستنفاذ الوسع في مضادَّة الحق والهدى؛ حيث كان أبو جهل من أئمة الكفر الذين قاتلوا وبدأوا بالقتال وأخرجوا الرسول واستطال ضررُهم وشرُّهم في الأرض.

وفي أثناء المعركة بدا أبو جهل فقال ابن عوف: هذا صاحبكما، فانقضَّا عليه، قال: فما شبَّهتُهما إلا بصقرين يخرَّان على الفريسة، فضرباه حتى أثخناه، وانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرانه بإزاحة طاغوتٍ من الطواغيت الصادَّة عن سبيل الحق، فقال: **أيكما قتله؟** قال كلٌّ واحد منهما أنا قتلته، فقال: **هل مسحتُما سيفَيكما؟** قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: **كلاكما قتلَه**[١].

فانظر إلى هذه الأمنية عند هذين الغلامين وهما في مُقتبل العمر!! كيف سرت إلى نفوسهم تلك الهمة وتلك العزيمة، من آثار أنوار النبوة وما سرى في المجتمع من التربية بالمنهج الإلهي الذي يجب أن يؤدي آثارَه فينا معشر الذين آمنا وصدقنا وشهدنا أن ما جاء به محمد رسول الله هو الحق.. فأين تذهب أماني أبناء الخامسة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر منا رجالاً أو نساء!!؟

وفي تلك المعركة من أبناء السابعة عشر أو الثامنة عشر من العمر شهيدٌ عظيم القدر هو سيدنا حارثة رضي الله عنه، ذلك الوحيد لأمه الذي لم يكن لأمه ابنٌ

---

١) رواه البخاري في كتاب الخمس- باب: من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلا فله سلبه من غير أن يخمس (الحديث: ٢٩٧٢)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير- باب استحقاق القاتل سلب القتيل (الحديث: ١٧٥٢).

غيره.. فكان ذلك الأمر في شأن هذا الشاب الصالح يبيِّن لنا الأمنية السامية العالية التي تحملُها قلوب أهل الصفاء والطهارة والنقاء والرفعة.. وذلك أنه سأل رسول الله أن يطلب اللهَ له الشهادة فقال: اللهم ارزق حارثةَ الشهادةَ في سبيلك..

حضر غزوة بدر فكان أحد الأربعة عشر الذين استشهدوا.. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة جاءت أم حارثة فقالت: يا رسول الله علمتَ منزلةَ ابني حارثة مني وأنه ليس لي ولد غيره، فأين ابني حارثة!؟ قال: احتسبيهِ عند الله، قُتل في سبيل الله، قالت: أخبرني أين ابني؟ قال: أقول لك قُتل في سبيل الله، فاحتسبيه عند الله، قالت: أقول لك أين ابني فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك فسترى ما أصنع؟ قال: **ويحك يا أم حارثة إنها ليست جنة واحدة إنها جنانٌ كثيرة، وإن ابنك أصاب الفردوسَ الأعلى.**[١]

الشاب الطموح الذي كانت غايته قربَ الله فحازه، ورضوان الله فنالَه، والنعيم المقيم الخالد الدائم فملكه.. كان أحد أولئك البدريين المخلصين الصادقين الذين كانوا خيار الصحابة رضي الله تبارك وتعالى عنهم وأرضاهم.

وامتلأت المعركة بالعجائب المبيِّنة للمقاصد التي يجب أن تتحقق في قلوب المسلمين، وبذلك يعتلون عن الإشكالات وإحداث المشاكل التي تصدع استقرارَ الأمة والتي تذيق الأمةَ أصنافاً من الأتعاب ومرارةً من الهوان والذلة، عند تحكُّم

١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد- باب من أتاه سهم غرب فقتله (الحديث: ٢٦٥٤).

الأطماع وإرادة فاني المتاع، ونسيان الرجعى، فتتحكَّم الإرادات بحيازة الفانيات حتى يحصل الغي والضلال مغطًّى أحياناً على صاحبه بصورة أنه دين أو هدى.

الصدق مع الله يهذِّب أمنيات المؤمن

إن الصدق مع الله تبارك وتعالى يمكِّن في القلب خروجَ أمنيات الفانيات ومظاهر الحياة بشاهد قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: ٨٣) فلمَّا لم يريدوا العلوَّ في الأرض ولا الفسادَ فيها كان لهم العلوُّ في السماء والأرض، والدنيا والآخرة، وكان لهم الصلاح، وكان لهم الفوز، وكان لهم النجاح، أعلى الله مراتبَهم بصدقِهم وإخلاصِهم للحق تبارك وتعالى.

قال سيدنا سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونُنيخ إليك ركائبك، ونلقى عدوَّنا؟ فإن أظفرنا الله عليهم وأعزَّنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلَّف عنك أقوامٌ ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك، فأثنى عليه رسول الله خيراً، ودعا له، فبُني له عريش فكان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، وكان الحارس أبو بكر الصديق رضي الله عنه،

---

١) رواه ابن إسحاق في مغازيه.

وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه وابتهاله وسجوده. وفي الصباح وبعد أن صفَّ الناس للقتال، وبعد أن بدأت المبارزة بثلاثة مع ثلاثة، وفيهم نزل قولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] فلم يختصموا على متاع ولا على شيء من هذه الدنيا، بل اختصموا في ربهم، وفي الحديث الصحيح يقول صلى الله عليه وسلم: ((**أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**))[١]، وفي ذلك قال سيدنا علي بن أبي طالب: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله[٢]، لأنهم هم الذين نزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] فيُسألان عن ذلك التقاتل ولم كان التقاتل؟ وبذلك تعلم أن الله سائلٌ كل مقاتل لمَ قاتل؟ وكل مجاهد ما كان سبب انبعاثه في الجهاد؟ ومن هنا نعلم معنى الحديث: ((**رب قتيلٍ بين الصفين الله أعلم بنيَّته**))[٣] ((**ومن غزا وهو ينوي عقالاً فله ما نوى**))[٤] ليس له غير ذلك العقال من ثوابِ الغزو كله.

إذن فلابد من السموِّ بالمقصد، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم ذلك حين سُئل: يا رسولَ الله الرجلُ يقاتلُ للمغنم، والرجل يقاتل حميَّة، والرجل يقاتل ليُرى مكانَهُ، أيُّهم في سبيلِ الله؟ قال ((**من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيلِ**

---

١) رواه البخاري في كتاب الديات(الحديث:٦٤٧١)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات- باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (الحديث: ١٦٧٨)

٢) رواه مسلم في كتاب التفسير- باب في قوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} (الحديث: ٣٠٣٣)

٣) رواه أحمد عن ابن مسعود.

٤) رواه أحمد في مسنده والنسائي والحاكم في المستدرك عن عبادة بن الصامت.

الله»[1] الذي تنزَّه، الذي تجرد، الذي سما عن الأغراض والمرادات والشهوات وإرادة العلو في الأرض، الذي يريد وجهَ الله تبارك وتعالى، فهو في سبيل الله.

وفي ذلك نرى كيف نصرَ الله أولئك الأقل عدداً وعُدَّةً في يوم بدر كما أشار إلى ذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦] وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ثم نرى أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهت المعركة وفرَّ المشركون، وقد قُتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، أمر بقتلى المشركين فوُضعوا في القليب ولم يتركهم للهوام ولا للطيور ولا للسباع.. فلابد أن نتعلم ذلك السمو من اهتمامه بدفن جثثِ المشركين المقاتلين المضادين.. هذا هو خلُق الإسلام، وأدب الإسلام، وسمو المقصد والمكانة.

---

١) رواه البخاري في كتاب التوحيد-باب : {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} (الحديث: ٧٠٢٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب : {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا} (الحديث: ١٩٠٤).

ثم وقف عليهم في القليب يقول: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا؟**» قال سيدنا عمر: ما تخاطب من أجسادٍ لا أرواح فيها!! قال: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[1].

رجعوا بالأسرى فأوصى بهم رسول الله خيراً فكانوا يؤثرونهم بأطيب الطعام؛ ما أجلَّ حال الصحابة الكرام وما أعرفهم بأداء الحقوق ومعاني الإنسانية وهم السامون بالمقاصد.. اللهم سِر بنا في سبيلهم، واجمعنا بهم في دار الكرامة وأنت راضٍ عنا، ولا تخلِّفنا عنهم يوم القيامة يا رحمن.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن سار في طريقه..

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه البخاري في كتاب المغازي -باب: قتل أبي جهل (الحديث: ٣٧٥٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (الحديث: ٢٨٧٥).

الدرس التاسع عشر:

الإحساس والشعور مع المواقيت والذكريات

الحمد لله الملك الأكرم، وصلى الله وسلم على عبده المصطفى محمدٍ ذي المجد الأفخم، وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله على القدم الأقوم.

أما بعد: فإن من جملة ما يحدث في عالم مملكةِ الإنسان (قلبه وأعضاؤه) شؤونُ الإحساس بالتوقيت والمواقيت والأزمنة والذكريات، وذلك شأنٌ تتفاعل فيه مع القلب الأعضاء، فيبدو ويبدر ما يبدو ويبدر من ذلك التفاعل المعبِّر، وفي ذلك أيضا تثبيتٌ لقاعدة السير إلى الحق، ومواصلةٌ لتنقية الإنسان عما يلحق به من المعايب والشوائب، فهو يستقبل الأشهر الفاضلة بشعور وإحساس يتناسق معها، فمن الغفلة الكبيرة أن في المسلمين أفراداً وأسراً تدخل عليهم الأشهر وتخرج لا يستشعرون شيئاً مما رتب الحق على الأوقات والمواقيت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الأشهر وما لها من خصوصيات ومزايا

جعل الله سبحانه تعالى أربعةَ أشهر حُرُم من بين الأشهر، وقد جعل تعالى شهراً من بين الاثني عشر شهراً سوَّده على الأشهر وهو رمضان، وربطنا في مسألة رمضان بشؤون، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وجعل في رمضان غزوة بدر

وغزوة فتح مكة، وجعل في رمضان فريضةَ الصوم وسنةَ القيام، وجعل في رمضان عتقاً من النيران في كل ليلة وفي كل يوم، يكثر عند غروب الشمس وعند طلوع الشمس، ولله في كل ليلة من ليالي ذلك الشهر ستمائة ألف عتيق من النار، فإذا كان آخر الشهر أعتق مثل ما أعتق من أول الشهر إلى آخره[١].

بكل تلك المعاني جاءت متابعة بعثِ الشعور وتقويمه عند الإنسان حتى في الشهر الكريم، فجُعل للعشر الأواخر ما ليس لغيرها، والتي غالباً ما تكون ليلة القدر فيها، فينبعث شعورٌ جديد واستعدادٌ حسن، فقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان شدَّ مئزرَه وأحيى ليلَه وأيقظ أهله[٢]، فيخصها بمزيدٍ من العبادة والطاعات.

فإذا انقضى الشهر بما فيه من النفحات والعطايا استقبلنا عيدَ الفطر، وفي عيد الفطر أيضاً تعبيرٌ عن الشكر لله تعالى ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:١٨٥)، نستقبل شوال ويصادفنا فيه صوم ستٍّ من شوال حتى لا ننقطع عن العبادة، خرجنا من عبادة وإذا بالعبادة أمامنا، وفي

---

١) أخرجه البيهقي في الشعب والأصبهاني في الترغيب عن الحسن.

٢) رواه البخاري في كتاب صلاة التراويح- باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان (الحديث: ١٩٢٠)، ومسلم في الاعتكاف- باب: الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (الحديث: ١١٧٤).

صحيح مسلم يقول صلى الله عليه وسلم: **((من صام رمضان وأتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر))**[1].

ثم بعد ذلك يقابلنا شهرٌ حرام وهو شهر ذي القعدة، وبعده يأتي شهر ذي الحجة، ومع كونه شهر حرام فهو الشهر الذي يقع فيه موسم الحج العظيم. وينتهي العام، ونستقبل عاماً جديداً وفيه ذكرى الهجرة لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تأتينا ذكرى ولادته وبروزه إلى الكون في ربيع الأول، ويأتينا بعد ذلك شهر رجب الشهر الفرد من بين الأشهر الحرم، وإذا بذكرى الإسراء والمعراج.

وكم من ذكريات فيما بين ذلك لغزواتٍ وسرايا حصلت، ويأتينا بعد ذلك شهر شعبان وفيه ليلة النصف وما ورد عنها من الأحاديث المتعددة للروايات الكثيرة. ويأتينا بعد ذلك شهر رمضان.

وإذا بنا طوال العام في تجديدٍ للمشاعر واستقبالاتٍ حسنة؛ ولما وجد صلى الله عليه وسلم اليهود في المدينة يصومون يوم عاشوراء سألهم: لم تصومون هذا اليوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له. قال: **((نحن أولى بموسى منكم))** فصامه وأمر الناسَ بصيامه[2].. فكان التفاعل مع المواقيت ومع الذكريات ومع خصوصيات الأوقات، وله حكمة في

---

١) رواه مسلم في كتاب الصيام- باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان (الحديث:١١٦٤)

٢) رواه أبو داود في كتاب الصيام- باب في صوم يوم عاشوراء (الحديث: ٢٤٤٤)

استدامة معاني الإقبال وتجديد بواعث الوجهة.. فمن موت القلب أن يدخل رمضان ويخرج، ويأتي شهرٌ حرام ويخرج، ويأتي موسم الحج ويخرج، وتمر بالناس ذكرى يوم عاشوراء أو غيرها ثم لا يحمل المؤمن فيها شعوراً وإحساساً يحمله على مواصلة التنقيةِ لضميره والتطهير لسرِّه، وعلى مواصلة النظر في أمره واستصلاح مساره وتقويمه إلى الحق تبارك وتعالى. وبذلك تعلم أنه كم أخذت الغفلة قلوباً وعقولاً منَّا معشر أهل الملة، فضعف التفاعل والتعامل والإحساس والشعور بالأيام المباركات وبما يحدث فيها.

النبي واهتمامه بالمواقيت

وقد ضرب نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم أروعَ الأمثال في هذا التفاعل الحسَن، وفي إعطاء المواقيت حقها، وفي إبراز معاني التجديد للعهود والإنبعاثات والتوجهات، وكل ذلك قريب على الإنسان مهما أخلص وصدق، مهما لم يعترض مسيرَه الأغراضُ الدنيئة والإراداتُ الساقطة، فإنه عرضةٌ لأن ينكشف لقلبِه سرُّ حسن التفاعل مع المواقيت والخصائص التي جعلها الله في الأيام والليالي.

ومن هنا نجد تفاعلَ النبي صلى الله عليه وسلم في كل أسبوع مع الاثنين والخميس، إنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم[1]،وكان صلى الله عليه وسلم يُكثر الصيام في شهر شعبان، وذكر عرضَ

١) إشارة إلى حديث (تُعرَض الأعمالُ يومَ الاثنين والخميس فأحبُّ أن يُعرَض عملي وأنا صائمٌ) رواه الترمذي والنسائي.

الأعمال على الله فيه، وذكر أنه شهرٌ يغفل عنه الناس، ثم يقول لنا في حديثه الشريف:((**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم**))[١]. ثم يدلُّنا على صيام الأيام البيض كذكرياتٍ شهرية في ليالي تكون قمرية، القمر فيها من المغرب إلى الفجر تفاعلاً مع الآيات الكونية، اتصالاً بالمكوِّن جل جلاله، وهذا سموٌّ في الغاية ونبلٌ في المقصد، وهذا أيضاً تناسقٌ وتناسبٌ حسنٌ مع السنة الكونية، سنة المكوِّن في الكائنات.

لأجل كل ذلك رأينا إشارةً في كلام سيدنا عيسى بن مريم عندما طُلب منه أن يسأل اللهَ إنزالَ مائدةٍ من السماء، وهو أمرٌ خارقٌ للعادة، فلما رأى إلحاحَهم ﴿ **قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا** ﴾ [المائدة: ١١٤] ما هو العيد لأولهم وآخرهم!؟ إنها تنزل يومًا واحداً للقوم الحاضرين ويأكلون منها مرة واحدة.. وانتهت، لكنه قال: **تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا**، أي تبقى الذكرى لهذا الحدث الخارق للعادة، لهذا الاتصال بالمكوِّن، لنزول المائدة من السماء ﴿ **قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [المائدة: ١١٥] لأن الحجة قد قامت وقد عاملناكم بإظهار خوارقَ للعادات وخصوصيات ومزايا.

---

١) رواه مسلم في كتاب الصيام- باب فضل صوم المحرم (الحديث: ١١٦٣)

ففي قول سيدنا عيسى ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ إشارة واضحة إلى مسألة التفاعل مع الذكريات والأحداث التي تطرأ على الناس خلال السنوات والأيام والليالي، فيبقى المتأخرون ذاكرين ما حصل للأولين وهذا هو ما بيَّنته السنة بقوله صلى الله عليه وسلم: **نحن أولى بموسى منكم**، ليوم عاشوراء فصامه وأمر الناس بصيامه.

التفاعل مع الأحداث والذكريات

نعلم من كل ذلك أن ذكريات المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الأنبياء والمرسلين أحقُّ بالاعتناء وأحقُّ بالذكر، وأحق أن تتفاعل بها قلوبُ الذين آمنوا به، ونرى هذا التفاعل سارياً في قلوب أصحابه الأكرمين رضي الله عنهم..

ونجد العباس بن عبد المطلب يقول الشعر في مدح النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويحمل من الذكريات ذكرى مولده الشريف، حيث قال: إني أريد أن أمدحك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هات لا يفضض الله فاك، فأنشأ العباس يقول:

وأنــت لمــا وُلــدتَ أشرقــتِ الأرض وضــاءت بنــورك الأفــقُ
فــنحن في ذلــك الــضياء وذلــك النــور ســبلَ الرشــاد نخــترقُ[1]

---

١) رواه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير.

ربط النورَ الذي هم فيه من الهداية والرسالة بالنور الذي برز في وقت ميلاده صلى الله عليه وسلم.

فلابد أن تقوم الحياة القلبية في المؤمنين بالتفاعل مع الأحداث والذكريات، فإنها تثمر لهم معانيَ وأذواقاً وترسِّخ فيهم إدراكات، وتجعل لهم إشراقاتٍ في القلوب تؤدي إلى نباهةٍ ويقظةٍ في الضمير، وتنويرٍ في الفكر، ويتم التفاعل بواسطتها مع أدب الشريعة، ومع تقويم العمل، وتعديل المائل من القول والفعل والحال.

كما تأتي الانبعاثات والتفاعلات من الأعضاء في هذه الذكريات بالبذل والعطاء والتضحية، وتقوم الأعضاء بوظائفها الصحيحة، بوظائفها التي يترتب على القيام بها سعادة الإنسان، فتنطلق الأيدي بالبذل والعطاء، والألسن بالذكر الجميل الحسن، والحمد والذكر والشكر لله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وبشاشة الوجه، ولين القول، والنظر بعين العطف والرحمة وغيرها مما يحصل من أثر هذه الذكريات والاجتماع على معانيها الساميات.

فوجود هذا التفاعل في الشعور والإحساس يقوِّم أساسَ التعامل مع المناهج الإلهية، ولذلك لم نجد استغناءً عنها حتى عند أهل المناهج الأرضية، فهم لمبادئهم يقيمون ذكريات يتفاعلون بها مع مرور الأحداث، فيضطرون إلى أن ينشِّطوا أنفسهم ويبعثوا معاني الذكرى ويوجدوا في الواقع إحساساً وشعوراً بمبادئهم

ومقاصدهم عبر تلك الذكريات في الأيام والليالي، تلك فطرة الله للناس، فكذلك جاءت في الشريعة الغراء هذه المعاني؛ وما قصُّ قصصِ الأنبياء، وقولُ الحق عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] إلا لهذه المعاني.

فنسأل الله أن يحيي في قلوبنا حسنَ التفاعل مع التوقيت والمواقيت والحادثات والكائنات، لنكون بها على صلة بالمكوِّن جل جلاله يقوى بها إيماننا ويقيننا.. وبالله التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس العشرون:

وجه بديع في الاستماع

الحمد لله واسعِ الإفضال جزيلِ النوال، وصلى الله وسلَّم على عبده الهادي الدَّال، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه خيرِ صحبٍ وخير آل.

أما بعد: فإن المؤمن في وجهته إلى الرحمن جلَّ جلاله، يستقي من معاني السمع ما يتَّسع له فيه المجال للتعمُّق في إدراك المعاني، وليبني على ذلك مباني؛ وذلك من خواصِّ السمع، المربوط بالقلب والعقل، فالسماع على هذا الوجه يُحدِث عند الإنسان افتتاحاً لأبوابٍ مِن الفهم والمعرفة والإدراك، تتَّسع فيها الميادين في الاستبصار والعثور على الحقائق، وفي تنوير القلوب وتزكية العقول والنفوس.

حال الأمة مع تأمل آيات القرآن

يعجز الناس كثيرًا عن التأمُّل والتدبُّر خصوصاً في الآيات القُرآنية، ويقصِّرون في ذلك.. فمن بين تالٍ يأخذه اللفظُ وإحسانُه كلَّ مأخذ فيغفل عن المعنى مِن أصله فلا تجد في القلب خشوعاً، ولا في الباطن تأمُّلاً وتذكُّراً وانتباهاً..

ومِن بين مضيِّعٍ حتى للفظ، يهذر في قراءته ويهذُّه بلا تدبر ولا تأمل أيضاً. ومن بين مهملٍ حتى لقراءة الهَذر، فلا يفتح الكتابَ العزيز ولا يتأمل معانيه أصلاً، وفي مثله جاء قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومن بين واقف على أوائل معانيه وأطرافها، ممسكٍ عن الغوص في ذلك البحر الفيَّاض.. يقول الإمام عبد الله الحداد:

وواظب على درس القرآن فإن في	تلاوته الإكسيرَ والشرحَ للصدر
ألا إنه البحر المحيط وغيره	من الكتب أنهار تُمدُّ مِن البحرِ
تدبَّر معانيه ورتِّله خاشِعاً	تفوز من الأسرار بالكنز والذُّخرِ
وكُن راهباً عند الوعيد وراغبا	إذا ما تلوت الوعدَ في غاية البشر

هذا التقصير في حُسن الاستماع أدى إلى افتقادِ الكثير من معاني اليقين في واقع الأمة، كيف وفي كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كلام الحكماء ما يُمكن أن يستقي منه الإنسان معانٍ تتسع له على توالي السنوات، ويتعمَّق فيها وترسخ فيه، فكيف بنفس كلام الحقِّ جلَّ جلاله وتعالى في علاه.

نلاحظ من هذا أنه حصل ضعفٌ في مملكة القلب والأعضاء بانقطاعِ الاستماع على هذا الوجه، وقد تقدم معنا عند الكلام عن السمع قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] وفي بعض الآيات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠] فجعل السمعَ منوطاً بالقلب، وعدمه منوطاً بالطبع على القلب، فلا ينفع السمع المجرد الظاهري مع فقدان هذه الحقيقة، ومن هنا نعلم أن من الواجب المهم علينا في حياتنا كثرة التأمُّل، ومتابعة المعنى والتدقيق فيه، وترديد النظر وتكريره، حتى نهتدي من تلك الكنوز على ما له نحوز وبه نفوز،

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(القمر: ١٧) وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(محمد: ٢٤) فتبيَّن أن كلَّ مُعرضٍ عن التدبر للقرآن في قلبه قفل، ومقفَّل القلب قد لا يَحسُّ بنفسهِ ولا يتَّعظ ولا يدَّكر.

إن المواعظ لا تُغني أسير هوى ... مقفَّل القلب في حيدٍ عن السَّنن
مستكبراً يبطر الحقَّ الصريح إذا ... يُلقى إليه لفرط الجهل والشَّننِ
يكفي اللبيبَ كتابُ الله موعظةً ... كما أتى في حديث السيد الحسن

ثمار حسن الاستماع

الاستماع على هذا الوجه أدبٌ مِن الآداب، مع ربِّ الأرباب، واهب السمع، يتَّسع عند من اتسع عنده الهَم والهمَّة والعزيمة والإدراك إلى ما يجري من الكلام العادي بينه وبين الناس، قال صلى الله عليه وسلم: ((**الحكمة ضالَّة المؤمن، حيث وجدها فهو أحقُّ بها**))[١]، ومن هنا فتحوا آذانهم واستفادوا حتى من كلامٍ قد يصدر على لسان مبتدئ أو عاميٍّ أو جاهل، ولكن يستفيد منه العاقل.. فهذه المملكة كثيرٌ من كنوزها تضيع إذا عُطِّلت إقامة الاستماع على هذا الوجه البديع.

وقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان حسنَ الاستماع إلى ما يُقال، وكان إذا تكلم استطاع العادُّ أن يعدَّ كلماته[٢]، وقد يُعيد الجملة ثلاثاً لتُفهم، وليعي

---

١) رواه الترمذي في أبواب العلم- باب في فضل الفقه على العبادة (الحديث: ٢٨٢٨) وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الحكمة (الحديث: ٤١٦٩)

٢) روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثا لو عدَّه العادُّ لأحصاه.

السامع ما يقول[١]، وقد ورد أن مجلسَه مجلسُ حلم وحياء وأمانة، يُوقَّر فيه الكبير ويُرحم فيه الصغير وتؤبَّن فيه الحُرم، ولا يُذكر أحدٌ فيه بسوء، وكأن على رؤوسهم الطير في مجلسه، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ[٢].

ولما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، قال: أأقرأ عليك وعليك أنزل!؟ قال ((**إني أحبُّ أن أسمعه من غيري**))[٣]. وكانت تُعجبه قراءة ابن مسعود. وقال لأبي موسى الأشعري: **لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود**[٤]، قال: يا رسول الله أما لو علمتُ بمكانك لحبرته لك تحبيراً[٥]، أي لبالغتُ في إحسانه طلباً لرضوانك الذي فيه رضوان ربي.

فتبيَّن بذلك أن لإقامة السمع على وجهه أثرٌ طيب، وأن التصامَم وعدم إعطاء الكلام حقه يفقد الناسَ كثيرا من الفوائد والكنوز، فلا يعثرون عليها. وأحقُّ ما

---

١) روى الترمذي في سننه عن أنس بن مالك قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم يعيدُ الكلمةَ ثلاثاً لِتُعقَل عنه.

٢) من حديث طويل رواه الطبراني عن هند بن أبي هالة يصف فيه جملةً من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن- باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره (الحديث:٤٧٦٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين - باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة (الحديث: ٢٤٧)

٤) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن- باب: حسن الصوت بالقراءة للقرآن (الحديث: ٤٧٦١) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث: ٧٩٣) واللفظ لمسلم.

٥) هذه الزيادة رواها الحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير وأبو يعلى.

كان بحسن الإصغاء والإنصات والاستماع والتأمُّل كلام مكوِّن الكائنات ورب الأرض والسماواتِ، ومن هنا ارتبطت الرحمة بحسن الاستماع إلى القرآن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وفي كل هذا نأتي إلى إقامة هذه الوظيفة التي أُهملت في كثيرٍ من حياة المسلمين.

صون السمع عن الكلام القبيح

يجب صونُ السمع عن الكلام القبيح- لأنه يعمل في القلب عملا- وذلك بسرعة الإعراض عما لا يليق، بل ومن المسلك الحسن في منهجية الاستماع أن ما يُستنكر وما لا يكون مفيداً لا يُمكِّنه سامعُه من أن يحلَّ في قلبه أبداً، فيكون بعد لحظات كأنه لم يسمعه، وتلك منهجيةٌ راقية للذين عرفوا التصرفَ تجاه هذه النعمة، فتجدهم يستمعون كلاما كثيرا، وحالُهم كما قال الله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] فكأنهم لم يسمعوا أصلا فلا يؤثر في قلوبهم، بل إذا مرُّوا بالكتب فما كان فيها من الأقوال الشاذَّة أو الكلام الخارج عن سبيل الصواب، لا يمكِّنونه أن يستقرَّ في قلوبهم أصلاً، فكأنهم لم يقرؤوه، ومن هنا تعلم أنه لا تصحُّ مشيخة الكُتب.

الكتب تذكرةٌ لمن هو عالمٌ ... وصوابها بمَحالها معجون
والفِكر غوَّاصٌ عليها مخرجٌ ... والحقُّ فيها جوهر مكنونُ

وانتشر بين العامَّة قولهم: من كان شيخه كتابه، فخطؤه أكثر من صوابه. وهذا الواقع الذي ضرَّ الناس.. وتطوَّرت الأشياء الآن، فصارت أيضاً مشيخةٌ

للأشرطة، ولأنواع السي دي، وللانترنت ولبعض الشاشات!! فينبغي أن تقترن المشيخة بالاتصال بالسند، ورجوع في الأصول إلى حُسن التأصيل على يدِ أهل اللبِّ الفحول، فلا نستغني عن الاتصال بالعلماء على هذا الوجه؛ على أن كثيراً من هذه الوسائل سببٌ حسنٌ للوصول إلى فوائد كثيرة، وإلى معارف وإلى علوم، ولكن مع ذلك لا ينبغي الاقتصار عليها، بل لا بدَّ مِن الصلة بالشيوخ والتباحث معهم والمساءلة لهم ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٤٣) ولذلك قالوا: إنَّ حفظ سطرين خير مِن قراءة كتابين، ومذاكرة بين اثنين خير مِن هذين..

من يأخذ العلمَ عن شيخٍ مشافهةً يكن من الزيغ والتصحيف في حرمِ
ومن يكن آخذاً للعلم من كُتبٍ فعِلمه عند أهل العلم كالعدمِ

وفي ذلك ينبِّه القائل على هذه الحقيقة بقوله:

ليس في الكتب والدفاتر علمٌ إنما العلم في صدور الرجال
كل من يطلب العلوم وحيدًا دون شيخٍ فإنه في ضلال

وقد جاء في مقدمة صحيح مسلم عن ابن المبارك قوله: الإسناد مِن الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء. وقول ابن سيرين: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. نسأل الله الثبات والتوفيق والاستقامة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

الدرس الحادي والعشرون:

ارتباط الأقوال بالحال والوجهة والمآل

الحمد لله الملك الكريم الجواد، أرسل إلينا عبدَه المصطفى خيرَ العباد، بالهدى والحق والرشاد والسداد، صلى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار في سبيله إلى يوم التناد.

أما بعد: فإن من جملة ما يحصل للإنسان في عالمه الوسيع الذي من أجله كُوِّنت السماوات والأرض ليحوز علماً عظيماً نافعاً، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢] يتعلق بشأنه في مملكته الواسعة مجالٌ واسعٌ نحو عضو اللسان واختيار ما يقوله.

عظمة ما يترتب على القول من الثواب والعقاب

نتحدث الآن عن عظمة ما يترتب على القول حتى يوجبَ العقابَ أو النعيم، فنجد الحقَّ تبارك وتعالى قد ربط بعض الجزاءات العظيمة والثواب الكبير على أقوال.. قال تعالى: ﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٥] ﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ ﴾ رتب على هذا القول المثوبةَ الكبرى ودخولَ الجنان، لارتباط القول بالجنان وحقائق

الإيمان وحال هذا الإنسان. فلاختيار القول الحسن وإيراده على اللسان شأنٌ متعلقٌ بالقلب وحقيقةِ وجهته، ويترتب عليه هذا الأمر الكبير في مصيره وعاقبته.

ولذلك وجدنا الأوصاف من الحق تبارك وتعالى للعباد الذين رفع قدرَهم وأحبَّهم، منها ما يتعلق بالقول.. ونجد أن نهاية الإنسان إلى الاستقرار إما في الجنة أو في النار، وتحصل محاورةٌ بين أهل النار وبين أهل الجنة، ومحاورة بين أهل النار وبين الخالق جل جلاله، فيذكر من حيثيَّاتِ دخولهم إلى النار استهزاؤهم بقول، وأن أهل الجنة بذلك القول جُزوا بالجزاء العظيم.. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٩] فاختار سبحانه وتعالى نموذجاً من القول الطيب الذي كان يقوله أهل الجنة.. كانوا كثيري التوجه إلى الله بهذا الدعاء: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ تأكيداً لإيمانهم واستعطافاً للرحمن أن يغفر لهم ويرحمهم.

وهذا شأن أكثر الدعوات التي يشتغل بها الصالحون على مدى القرون، فتتضمن توجُّهاتهم وأقوالهم طلبَ الرحمة والمغفرة، وتقويةَ الإيمان وتثبيتَه، في ضمن معنى ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ قال تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ هذا القول لم

يكن يثير فيكم تذكُّراً لمصيركم، ولا نظراً في حالكم وما قابلتُم به وحيَنا ومنهاجَنا. فبدل أن يبعث فيكم هذه المعاني الشريفة كنتم تستهزئون استجابةً منكم لأهواء نفوسكم، فكان هذا القول لا يتناسب مع ما ارتضيتم به لأنفسكم من غيٍّ وضلالٍ وجريٍ وراء دواعي النفس الأمارة والهوى، فما كانت منكم السخرية من هذا القول إلا نتيجةً لما وقر في قلوبكم من تلك المعاني السيئة.

تفاعل الإنسان مع الأقوال بحسب حاله

حال الناس في هذا الوجود بين مملكة القلب والأعضاء أن مِن الأقوال ما يلفت الأنظار لفتًا حسنًا، ويُعجب الإنسان فيتفاعل معه تفاعلاً طيبا؛ ومن الأقوال ما ينفر منه الإنسان أو يستهزئ به. وتلك مقاييس يُعلمُ بها أحوال أهل الجنة وأهل النار.. وأحوال المؤمنين والكافرين.

فالأقوال الطيبة وأعظمُها كلام الله، والذكر لله، ثم أنواع الأدعية والصلاة على المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر أخبار الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين.. كل ذلك مما يتناسب مع ما يحُلّ في قلب المؤمن من عظمة الله وعظمة المصير إليه، فيصادف من أصحابه رقَّةً وابتعاثَ همةٍ وعزيمةٍ صالحةٍ ووجهةٍ إلى الحق، وزيادةً في الإيمان وطمأنينةً في القلب. ومن هنا كان يقول الجنيد بن محمد: إن حكايات الصالحين جندُ الله يرسلها على القلوب. ولهذا أيضاً نقرأ القصص الكثيرة في الكتاب العزيز حتى سمَّى الله سورةً من سور القرآن سورة

القصص، وذكر حيثيَّاتٍ في الانتفاع بالقصص في قوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١] فيكون هذا الانبعاث للشعور الحسن متناسقًا مع الكلام الطيب عند قلب المؤمن، للمناسبة بين ما استقر في قلبه وبين ما سمع.

ولكن إذا ذُكر الله تبارك وتعالى وجدتَ قلوبَ الذين لا يؤمنون بالله ربما اشمأزَّت أو نفرت، قال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥]. وكذلك إذا ذكرتَ أخبار الرسل أو أخبار الصالحين، أو حصل الدعاء فيوجد شيء من النفور عندهم. كذلك في ما يُعرض من الأفلام وغيرها في الشاشات وفي غيرها، كذلك مما يُتناول من الحديث بين الناس من قصص أو أخبار.. كلُّ ذلك له نبأٌ عن وجه التجانس بين ما في باطن الإنسان وبين ما سمع.. ولذلك كانت نفرةُ المؤمنين الصادقين من القولِ السيئ ومن الكلامِ البذيء وتباعدُهم عنه، لأنهم على الفطرة السليمة القويمة، وتجد هذه الآية تبين لنا الحقيقة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ثبتوا على ذاك القول ومعانيه ومقتضاه، ولم يبالوا باستهزائكم فكانوا هم الفائزون بعد انتهاء مدة الاختبار التي هي بالنسبة لما وراءها قصيرة، ولو كانت أعمار الأمم

السابقة الذين يُعمَّرون ألف عام أو زيادة، هي قصيرة بالنسبة لما سيأتي بعدها، قال تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

وجوب تفقُّد المؤمن لحاله ووجهته ومآله

تجاهلَ كثير من الناس هذه الفوارق الآتية بحقائق من كلام الحق، وكلام رسوله فلا يتفقَّد أحدهم نفسَه.. فرحه وانبعاثه لماذا!؟ تأمَّل قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وانظر بم يكون ارتياحك وانشراحك؟ بسماع أي الأنواع من الأقوال؟ أي الأنواع من القصص؟ فإن ذلك يحكي المناسبةَ بين باطنك ووجهتك، وبين ما تسمعه وبين ما تنشرح إليه وتفرح به.

واهتم بتربية قلوب أسرتك وأصدقائك على الانشراح بالذكر للرحمن والطمأنينة به والذكر لأخبار الصالحين، واعمُر من عمرك نصيباً بذلك الخير الوافر الذي يسوق إليك مواطرَ من رحمة ربك وزيادةً في الفقه في دينك، ورقَّةً في فؤادك إلى غير ذلك من المنافع الكبيرة.

وكم من الآيات رتب الله فيها على القول أمراً عظيماً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] وقال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] لم يعبِّر الحقُّ تبارك وتعالى في الآيتين عن حال الفريقين بشيء من الأعمال إلا بالقول الذي يدلُّ على أحوالهم ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي نصيب، فإذا توجه بشيء من الدعاء إلى الله طلب به صحةَ الجسد وكثرةَ المال، وما يتعلق بأجساد وأموال ومظاهر وزخارف زوجته وأولاده ونحوها؛ وينسى نصيبَه من الآخرة، وطلبِ ما هو أعظم ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ كما نلاحظ في الآيات معانٍ بديعات مما رُتِّب على هذا القول، فإنه يدل على جميع أحوال القلب ويتضمن إثباتاً للأعمال المتناسقة معه. لذلك يجب أن لا يستهين أحدٌ من المسلمين بالكلمات ولا بما ينشرح له صدره من أنواع الكلام.

نسأل الحق تعالى أن يثبِّت قلوبنا على صدق الوجهة إليه، ويرزقنا من حسن القول ما نحوز به أوسعَ الطول، ونظفر به بالظفر الأوسع من خيرات الدارين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والعشرون:

رونق أدب العطاء والأخذ

الحمد لله أفضلَ الحمد وأتمَّه على كل حال، وصلى الله وسلَّم على عبده المصطفى ذي النورِ المشرِق المُتلال، وعلى آلهِ أكرم آل، وأصحابه ومن سار في دربه إلى يوم المآل.

أما بعد: فإن من جملة ما يتعلق بشأن الإنسان في أعضائه وقلبه أن يوقَى شحَّ نفسِه بواسطة عطاءٍ مفروضٍ عليه في المال والبدن، فهناك الأموال التي تجب فيها الزكاة، وهناك الأبدان التي فُرضت فيها الزكاة على الصغير والكبير والذكر والأنثى، فمَن وجبت على الإنسان نفقتُه وجبت عليه زكاة فطرته، وتجب بخروج رمضان ومجيء أول جزء من شوال. فالزكاة ركنٌ من أركان الإسلام وفُرِضت في السنة الثانية من الهجرة، يُراد منها استخراج الشح من النفس، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) وفي الخبر: ((**ثلاثٌ من كنَّ فيه وُقِي شحَّ نفسه: مَن أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة**))[1].

الإنفاق علامة الإيمان

جاءت درجات الإنفاق بحسب الإيمان، فإن الله حبَّب إلى النفوس الأموالَ بأصنافها، ثم جعل العلامةَ على محبته أن تُنفقَ تلك المحبوبات بحكمِ الطبيعة من أجله عز وجل، فتكون علامةً واضحةً على صدق العبد في محبته لله، بأن ينفق ما

---

١) رواه الطبراني في الكبير عن زيد بن حارثة.

تحبه النفس وتهواه، قال تعالى ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] وجاءت المسابقات بين الأكارم في معاني سخائهم وجودهم وعطائهم، وقال الإمام عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه عن مُقتدى أهل السخاء والكرم والجود صلى الله عليه وآله وسلم:

وفي السخاء كأنه البحر زخر   يعطي مئيناً وألوفاً من حضر
وما اصطفى لنفسه ولا ادخر   إلا يسيراً وهو ذو العيال

ولما أعطى بعضَهم أغناماً بين جبلين، عاد إلى قومه يدعوهم للإسلام ويقول: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[١]. وفي رواية: من لا يخشى الفقر.

ولأجل هذا السر في ارتباط البذل والزكاة بالإيمان - سواء كان زكاة فطر أو زكاة مال أو كانت صدقة تطوع أو كانت هدية تُهدى- ارتبطت بطيبِ النفس بها وجُعلت البركة في ذلك، ورُتِّب الثواب العظيم على من أعطى الزكاة طيبةً بها نفسُه، وفي ذلك يقول سعد بن معاذ للمصطفى صلى الله عليه وسلم: خذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت والذي تأخذ أحب إلينا من الذي تدع[٢]..

فكانوا يفرحون بالبذل لله تبارك وتعالى، وما يأخذه الواحد منهم فيصرفه في نصرة الله ورسوله أحب إليهم من جميع ما يترك.

---

١) رواه مسلم في كتاب الفضائل- باب ما سئل رسول الله شيئا قط فقال: لا. وكثرة عطائه (الحديث: ٢٣١٢)

٢) وكان ذلك في خروجهم لغزوة بدر لما استشارهم النبي في قتال قريش.. وقد تقدم سابقا.

تقويم النظرة إلى المقصود من المال

ومن هنا تقوم النظرة إلى المقصود من المال، فإن الذين يجعلون المال مقصوداً في حدٍّ ذاته قومٌ سقطوا عن الرتبة السَّنِية والرفيعة في الإنسانية، وتشبهوا بمن كفر بالمصير والمرجع إلى الله والدار الآخرة.

وحينئذٍ تقوم الفوارق الكثيرة، فهؤلاء الذين يئسوا من الآخرة لا همَّ لهم إلا الدنيا، ويصعب عليهم الحال عند الخروج من الدنيا لأنها غايتُهم ولا غاية لهم وراءها، فمنهم من يجعل هذا المال لأجل قضاء الشهوات فهو يصرفه في قضاء الشهوات فيتجاوز حدودَه ويتعدى حدود باريه ويخرج عن منهج ربه غير عابئ بأن مآلَ ذلك ومصيرَه شدةٌ عليه وبلاءٌ في الدنيا قبل الآخرة غالباً والعياذ بالله تبارك وتعالى.

ومنهم من صارت شهوتُه في إمساك المال لنفسه ولو لم يصرفه في دواعي الشهوات الأُخر فتحوَّل عنده المال إلى غايةٍ من الغايات، وكل أولئك يشتد بهم الحال عند الغرغرة، وعند مفارقة الروح الجسد.

ولكن من قدَّم لآخرته وكان مستعدًّا للقاء ربه يكون حاله عند الموت أقرب لأن يفرح بلقاء الله، وأن يحب لقاءَ الله، فيحب اللهُ جل جلاله لقاءه.

وفي القرآن الكريم وصفٌ للمشركين بعدم إيتائهم الزكاة، قال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦-٧] فجعل هذا مظهراً واضحاً من

مظاهر أهل الشرك بالله أنهم لا يؤتون الزكاة، يبين بذلك أنه على قدرِ الإيمان تكون الرغبةُ في العطاء والمبادرة في إخراج الزكاة، فنجد كثيراً من التجار المسلمين من يتحرى بزكاته أهلَها من الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠]

فلابد من التحرِّي وإيصالها إلى محلها؛ لا كما يضحك الشيطان ويلبِّس على كثيرٍ من الذين يُخرجون الزكاة، فهم يؤدون الزكاة ولكن مع أدائها لا يتحرَّون وضعَها في محلها، فقد يُحابون بها أو يداهنون بها أو يعطونها مجاملةً لمن ليس من هذه الأصناف، فلا تبلغ محلَّها فكأنهم لم يخرجوها، فيقعون بذلك في الحرج.

فالزكاة حقٌّ لله تبارك وتعالى لمن بيَّنهم الله في كتابه، يجب أن تُؤدى إليهم كاملةً طيبةً بها النفوس، فتكون طُهرةً للمزكِّي، وكما قال صلى الله عليه وسلم في زكاة الفطر: ((**أنها طُهرةٌ للصائم من اللغو والرفث**))[1].. أي تجبر الخلل والتقصير الواقع في صوم الصائم، وتسبِّب قبول صومه عند ربه عز وجل..

فيجب على أهل كل قُطر أن يكفوا الفقراء والمساكين عن المسألة في يوم عيدهم، فيعطونهم الفطرة فلا يحتاجون إلى سؤال أحدٍ في يوم العيد.

---

١) رواه أبو داود في كتاب الزكاة – باب زكاة الفطر (الحديث: ١٦٠٩) وابن ماجه في كتاب الزكاة– باب صدقة الفطر (الحديث: ١٨٢٧).

علو الدرجات على حسب المقاصد والنيات

إذا علمنا ذلك فإن ترتيب ترقية النفس وتربيتها حتى تكون فرِحةً بها تعطي بذكرِ الأثر والثواب الذي يترتب على الإنفاق والعطاء في سبيل الله في سموٍّ في الإخلاص والقصد، قال تعالى في مدحِ عباده المتقين الأخيار الأبرار: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨-١٠] وهم في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ معنيان: المعنى الأول: مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، والمعنى الثاني: وهو الأرقى والأعظم (على حبه) أي على حب الله تعالى[١]، انطلاقاً من محبة الله الذي آمنوا به ربًّا وأيقنوا بالمصير إليه، فمحبةً لله يطعمون الطعام مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحببناه فعبرنا عن محبتنا له ببذل ما تحبه النفوس رجاء رضى الملك القدوس.

وإنما عُلوُّ الدرجات للباذلين متوقفٌ على جودة المقصد، وطهارة الباطن، وصفاء السريرة، وإخلاص القصد لوجه الله تبارك وتعالى. وفي ذلك جاء عنه صلى الله عليه وسلم: ((**سبق درهمٌ مائةَ ألف درهم**))، قالوا: يا رسول الله كيف يسبق درهم مائة ألف؟ قال: ((**رجل له درهمان أخذ أحدَهما فتصدق به، ورجل له**

---

١) حكى المعنيين ابن كثير والثعلبي في تفسيريهما عند تفسير قوله تعالى: ويطعمون الطعام على حبه ...

مالٌ كثيرٌ فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها))[١]، ذكر حيثيَّةَ أن صاحب مئات الألوف ينفق من مالٍ كثير لا تساوي نسبة المائة الألف إلى مالِه شيئاً يذكر، وأن صاحب الدرهم الواحد لا يملك إلا درهمين فأخرج الدرهم فهو قد أخرج نصف ماله بخلاف ذاك.. فهذا وجه، والوجه الآخر أنه كلما كان القصد أخلص أو كلما كان الضمير أصفى كان ذلك أعظم عند الله تبارك وتعالى.

ومن هنا أُمرنا في البذل والعطاء باليد أن نلاحظ القلب أن لا يمنَّ بالصدقة والعطاء والهدية على أحد، ويعلم أن المالك الحقيقي هو الله.. والموفق هو الله.. والذي ملَّكه هو الله.. والذي سلَّط على القلب العطاء هو الله.. والذي وفقه للعطاء هو الله.. والذي خلق المُعطى هو الله.. والذي يسَّره أن يقبله هو الله.. فالكل لله تبارك وتعالى، ومن هنا عُدَّ المنان بالصدقة ممن لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[٢].. وذلك أنه تناسى حقَّ من له الحق وهو الله جل جلاله، وأراد أن يقيم نفسَه كأنه المالك الرزاق المقدم المؤخر النافع الضار!! ولم يعلم أن الله إنما سخره في ذلك، وسخر له تلك الأشياء اختباراً له، والكل في الحقيقة مُلكُ الله.. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٤٢] وقال

---

١) رواه النسائي عن أبي ذر، وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة.

٢) إشارة إلى حديث مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)، قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار.. قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.

سبحانه: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١].

بذلك كله نخلُص إلى وجوب تقويم الضمير على محبةِ الله تبارك وتعالى من خلال حسن التصرف بما نملك، وأمامنا درجات الترقي إلى حدود الإيثار المشار إليه بقولِ الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] قال تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

أدب الأخذ

يختلف جانب الأخذ من شخص لآخر.. والآخذ أيضاً على حسب نيته ومقصده والتفاتِ قلبه، فإذا شهد أن المعطي في الحقيقة هو الله، ولم يأخذ تكثُّراً ولا لأجل الشهوات، ولا بإظهار وصفٍ ليس فيه.. فُيبارك له في أخذِه، ويبارك له فيما يستلمه ويقع في موقعه ويجد له ثمراتٍ طيبة..

والآخذ باللهفة وشدة الرغبة والحرص والطمع لا يُبارَك له فيما يأخذه.. وتلك القاعدة التي علَّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب وقد عرض عليه بعضَ المال فقال: اصرفه إلى من هو أحوج مني، فقال صلى الله عليه وسلم: ((**خذه فتموله وتصدق به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف**

ولا سائل فخذه وإلا فلا تُتبعه نفسك))[1]. فحينئذٍ نعلم أن القاعدة أن لا نُتبِع أنفسَنا ما في أيدي الناس ولا نتشبَّث به، وفي الحديث: ((**لا يفتح أحد على نفسه بابَ مسألةٍ للخلق إلا فتح الله عليه باب فقر**))[2]، فتجد معاني الفقر في قلبه تتسع عليه، وتُتعبه ويُتعب بها الناس معه، ويعيش في نكد وينتقل إلى جزاءٍ لا يحمد.

فينبغي تعليقُ القلوب بالحق تبارك وتعالى، وإقامتُها على الاستقامة في العطاء وفي الأخذ وقصدِ وجه الله للمعطي والآخذ، ويحصل بذلك صلاحٌ للمجتمعات ونشرٌ للانتفاعات، وخيراتٌ واسعات ودفعٌ للبليَّات.. كما ورد في الحديث: ((**إن صدقة السر تطفئ غضبَ الرب، وتدفع ميتة السوء**))[3].

اللهم اجعلنا من الصادقين المتصدقين المخلصين المنفقين المستغفرين بالأسحار.. برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه البخاري في كتب الأحكام-باب: رزق الحكام والعاملين عليها (الحديث: ٦٧) ومسلم في كتاب الزكاة- باب: من أعطي من غير مسألة ولا إشراف (الحديث: ١٠٤٥) والنسائي وأحمد عن عمر بن الخطاب.

٢) رواه الإمام أحمد في مسنده.

٣) رواه الطبراني في الأوسط.

الدرس الثالث والعشرون:

تخيُّر الدعاء وتلمُّح الإخلاص

الحمد لله الرحمن الرحيم، الملكِ الجواد الكريم، نسأله أن يصلي ويسلِّم أفضل الصلاة وأزكى التسليم على عبده المصطفى المجتبى ذي الخلق العظيم، وعلى آله وأصحابه ومن سار في منهجه القويم.

أما بعد: فإن من جملة ما ينازل الإنسانَ في مملكةِ قلبه وأعضائه شؤونُ تخيُّرِ الألفاظ في الدعوات، وفي ذلك جاءتنا الأخبار بطلباتِ الصحابة لبعض الأدعية من رسول الله، وجاءتنا أيضاً اختياراتٌ من الحق تعالى وهبَها لنا فعلَّمنا أدعيةً في الكتاب العزيز ندعوه بها، كما تقدم في بعض الدروس ذكرُ ثنائه على من يدعونه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وصح في الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر من هذا الدعاء[١].

طلب الكرامة الحقيقية وهي الاستقامة

علَّمنا الله تعالى كيف ندعوه، ومن أعظم ذلك ما تضمنته فاتحةُ الكتاب أعظم سور القرآن ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] فهو أعظم ما طُلب من الحق، إذ قد دعانا إلى المشي على الصراط المستقيم والاستقامة عليه، فحين نطلب منه توفيقَه وإعانتَه على القيام بما دعانا إليه يكون

١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس.

مقدارُ الطلب عظيماً، فهو مِن خيرِ ما نطلبه من الحق جل جلالـه، فنطلـب منـه أن يمكِّن فينا جميعَ الصفات التي دعانا للتحلِّي بها، وأن يخلِّينا عن جميع الصفات التي حذَّرنا منها ونهانا عنها، ومن هنا جاء قولهم: الاستقامة أعظم كرامة.

فمِن أعلى ما يكرم الله به العبدَ أن يوفِّقه للاستقامة في أقواله وأفعاله وأحواله، ولذلك إذا نسبوا هذه الكرامات الحقيقية للكرامات الصورية – التـي قـد تكـون كرامةً وقد تكون استدراجاً وقد تكون غير ذلك–، قالوا: استقامة مع الله في ركعة خير من ظهور سبعين كرامة، أي من خوارق العـادات التـي تتعلـق بهـا النفـوس وتتشوَّف إليها، حتى أن من الناس من يظن أن الولاية والقرب من الله تعالى قائمةٌ على خرقِ العادات، وليس الأمر كذلك.. فكم من عبدٍ من عباد الله لا تظهر عـلى يديه شيءٌ من الخوارق أرفعُ درجةً عند الله وأعظم حالاً ممن يُظهر الكرامات.

والتعلُّق بخوارق العادات من جملة هوى النفس، ومن هنا قام الاجتهاد عنـد المجاهدين في العبادات على أن يخلِّصوا قلوبهم مـن قـصدِه، حتـى لا يكـون لهـم مقصود إلا استجابةً لأمر الله تعظيماً وإجلالاً له، وقياماً بحـق ربوبيَّتـه وأداءً لحـق العبودية له جل جلاله. فهم يتنبَّهون لئلا تأخذهم مقاصد هذه الأهواء، فهي مـن جملة الهوى. ومن هنا نعلم أن الراسـخين في العلـم والولايـة يكونـون مـن أبعـدِ الناس عن الهوى، لذلك فإن غالب ما يصدر من كرامات الأولياء على غـير رغبـةٍ

منهم فيها أو شغفٍ بها أو تحكُّم فيها، ولكن تظهر إما من حيث لا يشعرون حيث يُجريها الله على أيديهم، وإما لحاجة من الحاجات وضرورة من الضرورات.

وقد حملت لنا السيرة النبوية هذه المعاني، فنرى كم من أحوال الشدة صبرَ فيها صلى الله عليه وسلم! وكم من أحوال الجوع! وكم من أحوال العطش! ونجده في بعض الأحوال يُظهر كثيراً من الخوارق، وكثيراً من المعجزات لحكمة.. والأنبياء أيضاً مُتعبَّدون بإظهار المعجزات دعوةً إلى الله لإقامة الحجة على العباد، ولفَتح أبواب الرحمة لخلق الله سبحانه وتعالى.

أنواع الخوارق للعادات

يجب أن يستقر في القلب أن الكرامة الحقيقية هي أن تُحلَّى بالوصف المحبوب لله، وأن تُنقَّى عن دنسِ المخالفات للجبار جل جلاله، ولأجل هذا فإنهم ينظرون من الإنسان إلى استقامته على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم واتِّباعه له، فهو الأساس والميزان؛ وليس بصحيحٍ أن من كان أعظم ولايةً عند الله تظهر على يديه الخوارق أكثر، بل إن هذه الخوارق قد تكون على سبيل الكرامة للمستقيم الصالح الذي لا تزيده إلا تواضعاً وأدباً مع الله، وقد تكون تلبيساً وتدليساً، وإما سحراً وشعوذةً لمن يستعمل ذلك، وإما إهانةً من الله لبعض أعدائه مما تُخرقُ العادات على ضد ما يريدون، أو استدراجاً لبعضهم مما يكون مِن خرقِ العادات وفق ما يريدون، كما يحصل للدجال الذي يخرج في آخر الزمان، وما من نبيٍّ إلا حذَّر أمته

من الدجال، وقد حذرنا منه نبيُّنا صلى الله عليه وآله وسلم وزادَنا بيانـاتٍ لم تكـن على ألسنِ الأنبياء قبله، وقال: مهما خفي عليكم من شـأنه فـلا يخفـى علـيكم أن ربكم ليس بأعور، وهو أعور العين، فلا يغرنَّكم ما يُظهر من الخوارق.

وقد جاءنا في الصحيحين أن مِن أفـضل مَـن يُقتلـون في الله ذاك الـذي يقتلـه الدجال ثم يحييه خارج حدود حرم المدينة، فيـدعوه إلى الإيـمان بـه فيقـول: أنـت الأعور الدجال الكذاب الذي حدَّثنا عنك رسول الله، فيشقه نصفين، ويمشي بين نصفيه ثم يقول: قم، فيقوم بإذن الله اختباراً لحال المؤمنين، فإذا انتصب قـائماً قـال له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة. قال ثم يقول: يا أيها النـاس إنـه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس. قال فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلا[١].

ولا يفعل بعده بأحد شيئا، في أيام فتنته التي تموج في الأرض وتدخل من باب الشهوات التي إذا تحكَّمت على عبدٍ أخرجته عـن مبادئـه وعـن أخلاقـه، فلـيكن الإنسان على بصيرة؛ وقد جاء في الحديث أن عيسى بن مريم بعد نزوله يخبر أقواماً من الصابرين أيام الدجال بمنازلهم في الجنة جزاء ما صبروا وذهبوا إلى الجبال بـلا تغذية حتى يبعـث الله لهـم ظبـاءً يـشربون مـن ألبانهـا، ويجعـل لبعـضهم تغذيـةً

١) أصل القصة موجود في الصحيحين، البخاري كتاب الفتن- بـاب: لا يـدخل الـدجال المدينـة (الحـديث: ٦٧١٣)، ومسلم في كتاب الفتن- باب في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (الحديث:٢٩٣٨).

بالتسبيح حتى تنتهي أيام الدجال. ويعطينا هذا الصورة عن النجاح في الصبر وإدراك اختيار المسلك الحسن كاختيار القول الحسن الذي ابتدأنا بالحديث عنه.

الاعتناء بالدعوات المأثورة في الكتاب والسنة:

ومن جملة اختيارِ القولِ الحسن الأدعيةُ التي كان يطلبها الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، تقول السيدة عائشة: يا رسول الله أرأيتَ إن أدركتُ ليلةَ القدر فبِمَ أدعو؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((**قولي اللهم إنك عفوٌّ تحب العفوَ فاعفُ عني**))[1]، فعلَّمها هذا الدعاء العظيم الجامع الذي تطلب فيه العفوَ من ربها الكريم، وهو سبحانه وتعالى حسنُ العفو، إذا عفا وسمحَ سترَ عبده وتحمَّل التبعاتِ عنه وأرضى عنه خصومَه وأدخله جنتَه برحمته.

فينبغي أن يكون للمؤمن نصيبٌ من أخذِ آياتٍ يدعو بها من آيات الدعوات في القرآن، ويأخذ بعض الأدعية الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ينسَ الدعاء بها في مجالسه، وقد دلَّنا صلى الله عليه وسلم على ما نختم به المجالس ليكون كفارةً لما جرى منا في المجلس وتثبيتاً لما كان فيه من الخير، فعلَّمنا عند القيام من المجلس أن نقول: ((**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**))[2].

---

١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه.

٢) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح، وأبو داود والنسائي.

كما علَّمنا صلى الله عليه وسلم عند الخروج من البيت أن نقول: **(بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله)** فمن قال هذه الكلمات عند خروجه من البيت قال له ملَك: هُديت وكُفيت ووُقيت، وتنحَّى عنه الشيطان، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدي وكُفي ووُقِي[١]، وقد علَّمنا صلى الله عليه وآله وسلم عند منامنا أن نسبِّحَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، ونحمدَه ثلاثاً وثلاثين، ونكبِّرَه ثلاثاً وثلاثين أو أربعاً وثلاثين، وأن ذلك خيرٌ لأحدنا من الخادم كما علَّم ذلك ابنتَه فاطمة الزهراء وسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنهم، وذلك عندما فكروا بطلب خادمٍ من الخدام الذين يوزعهم فعلَّمهم هذا الدعاء[٢]، وفي هذا إلماحٌ أنه ينبغي أن نتخيَّرَ من الأقوال والدعوات ما يكون لنا زادٌ وفتحٌ لأبواب البر من ربنا ودفعٌ للأسواء عنا. يقول سيدنا حذيفة بن اليمان: يأتي على الناس زمانٌ لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاءٍ كدعاء الغريق[٣].

اللهم اجعلنا من الداعين المقبولين واجعلنا من المُستجاب لهم يا رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه الترمذي في أبواب الأدب عنه صلى الله عليه وسلم-باب ما يقول إذا خرج من بيته (الحديث: ٣٤٢٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود في كتاب الأدب- باب فيمن دخل بيته ماذا يقول (الحديث: ٥٠٩٥) واللفظ له.

٢) رواه البخاري في كتاب النفقات- باب عمل المرأة في بيت زوجها (الحديث: ٥٠٤٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب التسبيح أول النهار وعند النوم (الحديث: ٢٧٢٧).

٣) رواه الحاكم.

الدرس الرابع والعشرون:

نظرات عميقة في السيرة النبوية

الحمد لله الملك الفتَّاح العليم، المنان الجواد الكريم، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، أرسل إلينا عبدَه المصطفى محمداً الذي ختمَ به رسلَه، وشرَّفه بالذكر الحكيمِ الذي عليه أنزله، اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمدٍ وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، والسائرين على دربه، وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد: فإن في مُدارسة السِّيَر خصوصاً للأنبياء أثراً قويًّا بالغًا كبيرًا في الاتصال بأسرار النبوات والرسالات، والاتصال بمن نبَّأ النبيِّين وأرسل المرسلين، وهو الله رب العالمين. ولقد عرفنا ما ذكر ربُّنا عن قصص المرسلين وما رتب عليها من عظيم الفوائد.. وكل ذلك يدل على أنه ينبغي أن نكون أحرصَ على قصصِ وأخبارِ سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إمامهم وسيدهم ومقدَّمهم.

دروس من فتح مكة

إن السيرة النبوية بما حوتهُ من فوائد كبيرة لها عظيمُ الآثار في تطهير الضمائر عن الأكدار، وفي ربطِ صغارنا وكبارنا بقدوتنا وأسوتنا ومحلِّ رضوان ربنا أن

نقتدي به وأن نهتدي به. وفي ذلك كله تنميةٌ لمعاني الإيمان واليقين، وما أوسعَها وأوسعَ أخذَ العبرِ منها.

ولنعرض لغزوة فتح مكة المكرمة، التي حدثت في العشر الأواخر من شهر رمضان، ونأخذ بعض ما فيها من العبر والدروس التي تحتاجها الأمة، ولنتأمل في واقعنا ما شحَنَّا به أذهاننا وأفكارنا وأذهان أولادنا من هذه الأخبار، وما شحنَّا به أفكارَهم من الأخبار الأُخر التي ربما كان فيها الضار، وربما كان فيها المكدِّر للضمير، وربما كان فيها المجرِّئ على المعاصي والسيئات، وربما كان فيها المهوِّن لشأن الطاعات والعبادات.

وهذا الشحن الذي تُشحن به العقول له تأثير كبير، إن اشتكى الناس في بعض المراحل والحوادث من تعبئاتٍ خاطئة عما يتعلق بفهمِ الدين، فإن التعبئة الخاطئة فيما يتعلق بفهم الدنيا لها خطورة كذلك، ولها آثار في واقع الناس وفي حياتهم وفي مسالكهم وفي معاملاتهم، لذلك يجب أن نتنبه لما نشحن به أفكار وأذهان أنفسنا وأهالينا وطلابنا وجلسائنا، فإن الذي لا يدرك أن عليه مهمةً فيمن يجالس وفيمن يلي أمرَه وفيمن يجاوره منحطٌ عن رتبة الإنسانية وعن رتبة الإيمان.. ولذا جاءت الخطابات للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ (التحريم:٦) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ (التغابن:١٤) وقوله عز وجل: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ

﴿وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨) وفي الحديث **((والله لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقَه))**[1] إلى غير ذلك.

خُوطِب المؤمنون بهذه الرعاية لشأن المجالسات وما تُشحن به الأذهان والعقول، ولن نجد في بضاعات الناس أحسنَ من أن نشحن العقول بما ارتضاه لهم مكوِّن هذه العقول وخالقها ومن إليه مرجعُ أهل هذه العقول وهو الله البر الوصول.

ما أنزل الله الكتاب ولا أرسل المصطفى إلا لنشحن أذهانَنا وأفكارَنا وقلوبَنا وعقولَنا بذلك النور الذي في الكتاب والسنة الغراء.. ومن هنا وجب أن نتذاكر.. كم من أبنائنا من لا يدري في أي سنةٍ حدث فتحُ مكة! وفي أي شهرٍ كان! وقد حدث في شهر رمضان في السنة الثامنة من الهجرة، فدخل صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مكةَ في العشر الأواخر من رمضان فاتحًا لها بعد صبرٍ طويل، بعد تحمُّلٍ جليل، بعد عناءٍ ومشقة جرت في تسليمٍ ورضوان وسكينة واطمئنان، عانى ما عانى وقاسى ما قاسى في مكة وفي فِجاجِها وفي شوارعها من الاستهزاء والاستخفاف والإيذاء والعناد واللمز والسب والشتم والخنق ووضعِ الشوك في الطريق إلى غير ذلك من أنواع الأذايا.

---

١) رواه البخاري في كتاب الأدب- باب من لا يأمن جاره بوائقه (الحديث: ٥٦٧٠) ومسلم في كتاب الإيمان-باب تحريم إيذاء الجار (الحديث: ٤٦) عن أبي شريح.

السمو في حسن التعامل

قبل أن يدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكةَ بركت ناقتُه القصواء ولم تقم، فقالوا: خلأتِ القصواء، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((**ما خلأتِ القصواء وما ذاك لها بخلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل**)) ثم قال: ((**والذي نفسي بيده لا يسألونني خطةً يعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها**))[1]. فكان تبيينُ حقيقةِ ما يقوم من السمو عن معاني الصراع القائمة على وجه الأرض، وما يعبَّر عنه من صراعٍ بين الحق والباطل، فيمكن عند التمحيص والتدقيق أن يُقال إن هذا اللفظ جاء على سبيل المجاز.. وهذا من جانب، لكن الجانب الحق أساسه في الانطلاق في الدلالة أو الدعوة أو المقاومة للشر أو الصدِّ للظلم والطغيان.. انطلاقاتٌ ساميات ليست بنوازع ولا دوافع متقاربات فضلاً عن أن تكون متماثلاتٍ مع أهل الباطل أبداً.

لذلك جاء ترتيب حقيقة ((**لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**))[2] ليس هذا من فراغ ولا بالادِّعاء، ولا لكل مَن قاتل؛ ولكن لمن عَرَفَ التصفية وعرف التخلية. فنجد النبيَّ صلى الله عليه وسلم مع هذه الثُّلة التي قامت في وجهه من أول دعوته وآذوه وآذوا أصحابه سنوات طويلة، لما جاء يوم نصر الله له عليهم

---

١) رواه البخاري في كتاب الشروط - باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب (الحديث: ٢٥٨١).

٢) قالها ردًا على أبي سفيان حينها قال بعد غزوة أحد: يوم بيوم بدر، الأيام دول، والحرب سجال. رواه أحمد والحاكم في المستدرك عن عمر وقال صحيح الإسناد.

يوم فتح مكة، فما كان شيء من الأنظار التي تختلج في أفكار عامة الناس عند الصراعات قط.

ولَمَّا تسرب تصورٌ إلى أذهان بعض المؤمنين وأفراد الصحب الأكرمين أنه يُذل الكفر اليوم بذلةِ الذين كانوا حُماته وحَمَلَته، صحَّح الرسول صلى الله عليه وسلم التعبير وأشار إلى ما يقوم له من تأثير.. وكان قد أمر عمَّه العباس أن يبقى مع أبي سفيان عند مدخل الناس في يوم العز الأكبر للحق والهدى، يوم أعزَّ الله رسوله وفتح له مكة، وجعل يرى الجيوش تمر، فلما مرَّ عليه سيدنا سعد بن عبادة قال: يا أبا سفيان اليوم يومُ الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة، اليوم يذل الله قريشاً.. فتأثر باطنُ أبي سفيان ونفسيته بطبيعة الحال وحكم الفطرة البشرية.

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق[1] من الحديد، فقال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس؟ قال العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحدٍ بهؤلاء طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيماً؛ فصحَّح له المفهومَ سيدُنا العباس حالاً وقال: ليس الملك، لكنها النبوة. قال: فنعم إذن[2].

---

١) الحدق: جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين.

٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

فتبيَّن أن ما يتخالج في الضمائر والعقول وينتشر بين الناس مستحكماً في نفوسهم من النظرة إلى مسائل الملك الدنيوي ليست في الدين، وليست من طلبات أهل الصدق مع رب العالمين، والملك في مكة قد عرض عليه في أول دعوته، لكن على أن يترك بعضاً مما أُمر به، فرفضه ولم يرضَ أن يأخذه ثم يؤوِّل التأويلات أنني بالملك سأتوصل إلى إقامة أمرِ الله ولو على المدى البعيد! بل رفض النبي الملكَ من أصله لأن النظرة قائمةٌ على حقيقةٍ في التصور وفي تحقيق المعنى.

تقويم النظر إلى معنى الملك

من الخلل الواقع عند المسلمين أن تتسرب إلى عقولهم وأذهانهم مشابهاتٌ في التصرفات مع فئات أهل الكفر.. فقد تتماثل الوسائل أحياناً لكن المقاصد يجب أن تكون ساميةً لأهل السمو، فلا تنزل قط.

ومن هنا إذا تأملنا نظرةَ الناس مثلاً إلى الخلافة التي وُعِد بها رسول الله أن تقوم في الأرض آخر الزمان.. لا يكون الفرحُ بها من حيثيَّة أن الفرد منا يحصِّل المحاصيل الدنيوية، ولا أن يملك هو بنفسه، فتلك التباساتٌ تلتبس على كثير من الناس. وإنما الفرح من حيثيةٍ واحدة وهي حيثيةُ رحمة الله تعالى للعباد وصلاح أمرِهم واستقامتهم، وإعزاز الحق وظهوره وجلائه، وتلك أمنيةٌ يتمنى كلُّ صادق أن تقوم.

بينما تتشبَّث بعض النفوس بملمحِ أن الخيرات تفيض، والكنوز تخرج، والأموال تكثر، ولا يجد الإنسانُ من يتصدق عليه، فيتعلق قلبه بهذه النواحي وكأن مراده في الحياة الدنيا أن يأكل ويشرب؛ فمع الدجال يجد مثل ذلك الأكل والشرب.. فهل يفرح به!؟ أو يحب أن يذهب معه!؟ فالمسألة أكبر من ذلك.

ونقول: معاني الفرح ثم السعي الصحيح لبروز ذلك العطاء من الله لأهل الأرض لا يكون بتحكُّم الأمنيات للفانيات والزائلات في القلوب، ولكن بتصفيةِ القلوب وتطهيرها وتنقيتِها، وإخلاص القصد والعمل لوجه الله الكريم، فليس كل من ادعى نصرةَ الله بناصرٍ لله، وكم من داعٍ إلى نفسه يظن بنفسه الدعوةَ إلى الله تبارك وتعالى. على سبيل المثال نجد المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ بأبي سفيان أخبره بمقالة سعد، فصحح النبيُّ المقالة وأوضح الدلالة وقال: بل اليوم يوم المرحمة.. اليوم تُكسى الكعبة.. اليوم يعز الله قريشاً[1].

فهذه النظرة ثابتة وراسخة عنده صلى الله عليه وسلم من قبل الفتح.. بل من قبل الهجرة.. ومن قبل خروجه من مكة.. يقول لعثمان بن أبي طلحة الذي منَعه من الدخول إلى الكعبة وقد كان فيها زعماء قريش، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل ردَّه، فقال: يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاحَ يوماً بيدي أضعهُ

---

١) رواه البخاري في كتاب المغازي- باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح (الحديث: ٤٠٣٠)

حيث شئت، فقال عثمان: لقد هلكَت قريش يومئذٍ وذلَّت، فقال صلى الله عليه وسلم: بل عمَرت وعزَّت يومئذ[1].

النظرة هي نفسها من قبل، فما كان في باله أن يذل أحداً من الناس، ولا يهين أحداً من الناس ولا أن يتجاوز حدًّا على أحد.. بل كان في باله أن ينتشر به العزُّ والعمار للبشرية والأرض بما جاء به عن الله.. فيجب إحكام النظرة لهذه المعان.

أسأل الله يتولانا ويصلح الشأن ويفرج كروب أهل الإسلام والإيمان، ويصفِّي قلوبهم عن الأدران ويهيئُهم لظهور الخير لهم وفيهم، إنه أكرم الأكرمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

١) رواه ابن سعد في الطبقات.

الدرس الخامس والعشرون

منطلق المعاملة في الهدي النبوي

الحمد لله مولانا الكريم، وصلى الله وسلم على نبيه الرءوف الرحيم، وعلى آله وصحبه ومن سار في منهجه القويم.

أما بعد: فقد أشرنا إلى ما يمكن أخذُه من نظراتٍ هي موضع التأسيس في المنهاج والوجهة من السيرة النبوية، فيما ذكرنا من أخبار فتح مكة، وما قال صلى الله عليه وآله وسلم عند الدخول إلى مكة مُصحِّحاً لعبارات سيدنا سعد، حيث بدَّل الملحمة بالمرحمة.. وبدَّل تُستَحل الكعبة بـ تُكسى الكعبة.. وبدَّل يذل الله قريشاً بـ يعز الله قريشاً .. فانظر إلى تصوُّر أن الذين تُفتح ديارُهم ويُدخل عليهم في أوطانهم يُرادُ إعزازُهم لا إذلالهم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم (اليوم يعز الله قريشاً)، لأن نظرةَ خيرِ الخليقة نظرةٌ متسامية عن الظن والوهم والخيال الذي ينتاب العقول البشرية ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] فنظرة حبيب الرحمن صاحب القول والنطق المزكَّى بقول الحق تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] نظرته إلى أنَّ مَن صدَّ عن سبيل الله، وقاتلَ أهل الله فقابلناه وقاتلناه إنما يُراد استخراجه من هذا السوء، وأن ينتقل من حقائق الذل والمهانة إلى العز والكرامة، وذلك بأن يُستخرج من ورطات استعباد نفسه وهواه والشياطين له،

ويسمو لأن يكون عبداً للذي خلقه وهو الله تبارك وتعالى، ويتهيأ للاستقرار والخلود في جنته بدل التعرض لدخول ناره.. إلى غير ذلك من الأوجه الواسعة في معنى العزة والكرامة.

فكذلك يحمل أتباعه لأهل الأرض حتى لمن حاربَهم، فهم يريدون أن يعزَّهم الله العزَّ الحقيقي، وذلك بنقلهم من ذلك الذي هم فيه، وهو ذلٌّ حقيقةً وإن اقترن به فخرٌ وكبرياء وخيلاء واستشاطة وغضب ونحوها.. أين مكمَن هذه النظرة في قلوب القائمين بنصرة الحق، والذين يريدون إقامة وإحياء خلافة سيد الخلق!؟ ولن تقوم الحقيقة إلا بالاتصاف بتلك الأوصاف، وإلا بشرب كأس حسنِ النظر في حقائق الدنيا والأُخر، وإرادة وجهِ الله الأكبر جل جلاله وتعالى في علاه.

وقد وجدنا في هذه الغزوة وحدها تلك المعاني الساميات، حتى أنه لما نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يقاتلوا إلا مَن بادأهم بالقتال، أكَّد بعد ذلك على تعظيم المكان، قال: مهما نازعَنا أولئك وآذونا فلا تستخفُّنا نفوسنا لأن نتصرف تصرفات المعتدي، فلازلنا نعظِّم ما عظَّم الله، وإن هم عظَّموا البيت بطريقتهم فلا يحملنا شنآنهم على أن نتنكَّر للبيت وتعظيمه لأنه بيت الله، فالمسألة دائرة على قصدِ وجه واحد هو الواحد، بها يكون حقيقة المجد عند صاحب ذلك القصد ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

أَحَدًا ﴾ [الفتح: ١١٠] ولما أمرهم أن لا يبدؤوا أحداً بقتال لم يُهدر إلا دم بضعة عشر، ثم إن الكثير منهم وصلوا إلى السماح والعفو منه صلى الله عليه وسلم.

أسس الانطلاق عند أهل الحق

كل ذلك يدلُّ على أن أصل الانطلاق عند أهل الحق مختلفٌ تماماً عن انطلاقات أهل الاتجاهات المختلفة ممن انقطعوا عن سبيل الحق، والذين انقطعوا عن سبيل الحق هم الذين انقطعوا عن الاتصال بمحمد ومنهج محمد والإيمان بمحمد والإتباع لمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، إذ هو خاتم النبيين الذي نسخَت شريعتُه جميع الشرائع صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

إذن تحقيقُنا للعبودية لله وقيامُنا بأمر الله لا يمكن أن يكون على حسب أهوائنا أو على حسب ما يصل من نقصٍ في تصوراتنا وأفكارنا، بل الأمرُ قائمٌ على استسلامٍ مطلق وتخلُّص من سلطة الهوى وسلطة النفس الأمارة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

بهذه الحقائق قامت خلافةُ الله في الأرض من عهدِ آدم على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام وحملَها النبيون والمرسلون، وجاءت بكمالها وتمامها فيمن ختم الله به الرسالة وهو المصطفى محمد عليه وآله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وقد بيَّن لنا وجهَ الكمال بمثال فقال: ((**إن مثَلي ومثَلُ الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتا،**

فأحسَنه وأجملَه إلا موضع لبنةٍ من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين))[1].

إذا علمنا ذلك علمنا أوجهَ الكمال فيما دعانا إليه من المقاصد، وأن وجودَ الغِلظة فينا من قِبَلِ الكفار مبنيةٌ على معنى سامٍ بعيدٍ عن تلك الأكدار التي تُنازلُ النفسَ الإنسانية.. فلا تعجب إذا رأيتَ من أصحابه كأمثال سيدنا علي لما تمكّن من قتلِ كافر يقاتله في الله، وبصق الكافر في وجهه، صرف السيفَ ولم يضربه، ويُقال له في ذلك فيقول: لما بصق في وجهي غضبَت نفسي وأرادت أن أضربه انتقاماً لها وأنا لا أضرب بسيفي إلا لله.. إنها تربية محمد. يجب أن تبرز معاني هذه التربية في وجهاتنا وفي تذكُّراتنا لذلك المقتدى، وفيما نتعامل به في هذه الحياة.

مُثل سامية ونماذج من تعامل النبي

إذا تذكَّرنا هذه الغزوة، تذكَّرنا معها مثُلاً وقيماً وآداباً ووجهاتٍ ونظراتٍ ساميات رفيعاتٍ شريفات.. ونجد أنه صلى الله عليه وسلم سمح أن يُنادى باسم أبي سفيان الذي كان قبل أيام في المقاتلين الحربيين، ثم بعد ذلك يذكر اسمه في النداء لأنه يحب الفخر تقريباً له إلى الله، ليتخلَّص من المحبة للفخر وغيره. فأمر أن يُنادى: من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومن دخل داره فأغلق عليه الباب

١) رواه البخاري في كتاب المناقب- باب: خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (الحديث: ٣٣٢٤) ومسلم في كتاب الفضائل- باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين (الحديث: ٢٢٨٦).

فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[١]. ووصل صلى الله عليه وسلم المسجد وكسَّر الأصنام ودخل الكعبة وصلَّى، ثم خرج وأمسك بعضادتي الباب وقد اجتمع الكثير من قريش وكان يقدر على أن يقتل من شاء منهم، وأن يعذب من شاء منهم.. وأن يسجن من شاء منهم.. فأعلن كلمةَ الحق بذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحده.

تصور نبيَّك وهو ماسك بعضادتي باب الكعبة وهو يتلو هذه الكلمة التي قُوتِل عليها، وأوذي من أجلها، وهاجر وخرج من مكة من أجلها، واليوم قد وصل وهو عند الباب يعلنها صريحة، والقوم الذين كانوا يؤذونه وأصحابه من حواليه.. ثم يخاطبهم: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأصدر عفواً عامًّا عفا به عن كل ما مضى، فامتلأت القلوب إدراكاً لعظمة هذا الإنسان ومنهجه وأنه لا يريد شيئاً من الدنيا ولا مُلكها ولا غيظاً لنفسه. وقال قائلهم: ما طابت بهذا إلا نفس نبي[٢].. فدخل الناس في دين الله أفواجاً ببركة أخلاق المصطفى محمد صلى الله عليه وآله سلم. حيث قام مقام الوفاء ومقام الأدب.

تيقَّن صلى الله عليه وسلم مِن رجل أنه يريد قتلَه فأطلَعه الله على ذلك فما كان إلا أن كافأه بدعاء وتوجُّهٍ إلى الله، فوضع يده على صدره فتحول من مريدِ قتل،

---

١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير- باب فتح مكة (الحديث: ١٧٨٠)

٢) قالها صفوان بن أمية لما أسلم في حنين وأعطاه النبي من الغنائم وأكثر له. الإصابة في تمييز الصحابة.

إلى عاشقٍ وصل، إلى متصلٍ بالجناب الشريف.. كافأه بأن داواه وتوجه إلى الله في شأنه.. فبينما كان فضالة يحدِّث نفسَه أن يقتل النبيَّ في يوم فتح مكة، وترقب فرصةً يطوف فيها بالبيت والناس مشتغلون، فأخذ يترقب الفرصة ليضربه ضربةً من ورائه فلما دنا منه وقف النبي والتفت، قال: أفضالة؟ قال: نعم، قال: ما تحدَّث به نفسَك!؟ قال: لا شيء كنت أذكر الله، فتبسم الرسول.. والرجل بين يديه يقدر أن يفعل به أي شيء.. فوضع يده على صدره ودعا له، قال: فو الله ما رفعها وعلى وجه الأرض رجلٌ أحب إليَّ منه. فداواه الله من تلك الأمراض، وصار مُحبًّا لله ورسوله محبةَ صدق، وصار يُضرب به المثل في الأدب مع الله والالتزام بشرع الله.

من نفس اللحظة خرج من المسجد فإذا بامرأة كانت تتحدث معه الأيام الماضية فقالت: هلُمَّ إلى الحديث، فقال:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليكِ الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسَّر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيِّنا ... والشرك يغشى وجهَه الإظلامُ[1]

فصلى الله على حامل ذاك النور والفكر الواسع والقلب الرحيم والصدر الواسع الشفيق.. اللهم ثبتنا على طريقه، واحشرنا في زمرته، وارزقنا حقيقة نصرتك ونصرته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. والحمد لله رب العالمين.

١) رواه ابن هشام في سيرته- المجلد الخامس، ذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان.

الدرس السادس والعشرون

سعة الشريعة وأدب الخلاف

الحمد لله مولانا الحقِّ المبين، لا إله إلا هو مالك يوم الدين، أرسل إلينا عبدَه المصطفى الأمين، محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون، اللهم أدِم منك الصلوات والتسليمات على عبدك محمدٍ رفيع الدرجات، وعلى آله وأصحابه ومن سار في منهجه على الثبات، وعلينا معهم وفيهم يا مجيبَ الدعوات.

أما بعد: فإن من جملة ما يكون للإنسان في مملكته العظيمة، مملكة القلب والأعضاء، شؤوناً تتعلق بحسن النظر إلى المنهج الإلهي في تقويم معنى العبودية وتلمُّح الحكم العبادية، ليُخرَج بذلك عن الاغترار بواسطة الاعتبار، ويُتَحصَّل من الادكار على موجب الثبات على المسار. ومما يتعلق بذلك تقويم النظرة إلى وجود الاجتهادات الصحيحة.

سعة الشريعة وحكمة تعدُّد الاجتهادات

قامت مذاهب المسلمين على اجتهاداتٍ صحيحةٍ قائمةٍ على الكتاب والسنة وملاحظة الإجماع وحسن القياس، فهي تُمثِّل عظمةَ الأصل والمرجع والمصدر وسعته.. وبذلك تُعلم ضرورة النظر إلى الحكمة في وجود هذه المساحة لذوي الاختصاص من أهل النظر والاجتهاد؛ وفي التنفيذ لتلك السعة والعظمة ما يخدم

مصالحَ العباد الحقيقية في مختلف البلاد ومختلف الأزمنة، وما يربي الفردَ المسلم على الخروج عن العصبية ولزوم الأدب مع الحق سبحانه وتعالى، ويفتح للعقل آفاقاً ليتسع له المجال بحسن الاستدلال بسعة النظر في ترتيب الأدلة والقيام بحقها مع معرفة كلٍّ قدرَه وحدَّه، بأن لا يتجاوزه ولا يجعل مفهومه - إذا كان من أهل المفهوم الصحيح والمهيَّئين للاجتهاد - لا يجعله في مثابة النص الذي لا يجوز الخروج عنه ولا المخالفة له. وهذا ما حفلت به سيرة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحملَته لنا في مختلف أنواع العبادات.

ولو تأملنا الصلاة لوجدنا تسابقَ الناس إلى إقامة الصلوات والإكثار من نوافلها، فمنهم المكثر ومنهم المُقِل ويأتي الحديث: ((**الصلاة خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل**))[1]. فيأتي عن بعض كبار الصحابة صلاة العشرين ركعة والثلاثين ركعة والمائة ركعة في الليلة كسيدنا عثمان بن عفان.. ويأتي عن بعضهم عددٌ أقل من ذلك.

ثم وسط الصلاة لهم أدعية يدعون الله تبارك وتعالى بها، ومنها ما جُهِرَ به الصوت وسمعه المشرِّع صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وبشَّر أولئك الداعين والمتكلمين بذلك الذكر بما بشَّرهم به، فصحَّ في الحديث عن ابن عمر أنه قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل

---

١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي ذر.

من القوم: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**من القائل كلمة كذا وكذا؟**)) قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: ((**عجبتُ لها، فُتِحت لها أبوابُ السماء**)). قال ابن عمر: فما تركتُهن منذ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك[١].. فعظَّم هذه الكلمات واهتم بها واعتنى بها من أثرِ إقرار المصطفى لذلك القائل لها.

ثم جاءنا في الحديث الصحيح عن رفاعة بن رافع يقول: كنا يوماً نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من المتكلم آنفا؟ قال الرجل: أنا يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها[٢]. فبشَّره بتبادُر الملائكة لكتابة تلك الألفاظ.

أدب الخلاف

وهكذا نجد الصحابة الكرام يدعون الله تعالى بالأدعية المختلفة، وفي هذا نلمح ما أشرنا إليه في بعض الدروس السابقة أنه مما ينبغي للمؤمن أن يجعل له نصيباً من دعوات القرآن ومن الدعوات النبوية، فلا نتجاسر بعد ذلك على غلقِ

١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة (الحديث: ١٥٠).

٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وورد في الصحيحين بألفاظ مقاربة لهذه الرواية.

باب الدعاء أو منعِ نوعٍ من أنواع الدعاء لم يرد النص بمنعه.. بل كل دعاءٍ بغير إثم ولا قطيعة رحم فهو من الدعاء المأمور به على وجه العموم، وبهذا نحفظ للعموميات خصوصيتها، ونكون عاملين بالنص وسائرين على هدي صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.. علَّم هذا دعاء، وعلَّم هذا دعاء، وعلَّم هذا دعاء، ولم يُلزم الكلَّ بدعاءٍ واحد، ولم يقتصر الذي علَّمه الدعاء على الدعاء الذي علَّمه وترك بقية الأدعية في مختلف الأحوال.

إذن فالسَّير إلى الحق تبارك وتعالى يجب أن يقوم على صفاءٍ في الباطن وحُسنٍ في المعاملة ترفع الإنسانَ عن ضيق الأفق وعن ضيق الصدر وعن إلزام ما لا يلزم وإنكار ما أقرَّته السنة أو تقرير ما أنكرته. وبهذا نعلم ما مضى عليه الصحب الأكرمون في حياة المصطفى محمد فيقول قائلهم: غدونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من منى إلى عرفات منا الملبِّي، ومنا المكبِّر[1]، أما هو فلزم التلبيةَ إلى أن رمى الجمرة.. وهو بين أظهرهم لم يستنكر على أحدٍ تكبيراً ولا ذكراً ولا نوعاً من أنواع التلبية التي ليس فيها شيء مما يخالف الشريعة.

فهذا هو الهدي النبوي الذي يجب المسار عليه بلا تفريط ولا إفراط، بلا غلوٍ ولا إهمال وإنزال الأشياء في منازلها.. وفرقٌ بين المحرم وبين المكروه والمباح.. وفرقٌ بين المندوب وبين الواجب المفروض.. وفرقٌ في كل ذلك بين المُجمَع عليه

---

١) رواه مسلم في كتاب الحج- باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات في يوم عرفة (الحديث: ١٢٨٤).

وغير المُجمَع عليه.. فتعلِّمنا الشريعة بذلك تعاملاً وسطيًّا حسناً معتدلاً قوياً مع بعضنا البعض فلا تكون المذهبية أساس اختلافٍ ولا تنازعٍ ولا تباغضٍ ولا تشاتمٍ ولا شحناء، بل تكون سببَ اتساعٍ وقوةَ ارتباطٍ وإدراكَ دلائل وتوسيعَ وسائل وتقويم شمائل ونشرَ فضائل وتعظيماً للأصل الذي أحدثَ هذه النظرات القويات الواسعات.

ومن المعلوم أن ما جاء من النصوص فكان قطعي الثبوت قطعي الدلالة لا يتأتى الخروج عنه لأحدٍ بحال من الأحوال مِن كل من بلَغه ذلك النص في ذاك الحال، وهو حالُ قطعية الثبوت وقطعية الدلالة.. وبذلك نعلم معنىً من سعة الشريعة في هذا المجال، فترحِّب صدرُونا بمختلف أهل المذاهب ممن لا ينشر فساداً ولا يُقيم عناداً ولا يبعث ضرًّا ولا يخرج عن مُجمَعٍ عليه في دين الله تبارك وتعالى.

وبذلك أيضاً نعرف أنه إن اتسعنا لغيرنا ممن لم يُسلم، وأقمنا الحوارَ والنقاشَ والمساءلةَ والبيانَ وإيضاحَ الأدلة، فمع من اتفقَ معنا في أصل الأصول وفي الأمر المهم الأعظم من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أفسح وأشرع في التعامل معه والتفاهم معه، وفي الاستفادة منه والإفادة له..

هذا مقتضى التربية النبوية التي ربى عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الأمة، وبهذا الأساس يذهب البأس ويخنسُ الخناس ويزول الوسواس الذي

يعالج كثيراً من القلوب والنفوس، فيباعِد بعضَ الناس عن بعض في وجوب اقترابِهم وتعاونِهم وتكاتفهم وتساعدِهم على الخيرات التي يمكنُهم نشرها في هذا الوجود.

ولما سُئل بعض أهل الحكمة من الدعاة الصالحين عن الفرق بين جماعته، وجماعة أخرى في نفس البلد من أهل الدين؟ قال: الفرق أن مقرَّنا في موضع كذا ومقرهم في شارع كذا من البلد. أي إنا اتحدنا في الأصل والمقصد، فقيل له: أنهم لهم سعيٌ في بناء المساجد ولا نرى ذلك في جماعتكم!؟ فقال: نحتاج إلى بناء المساجد ونحتاج إلى إيفاد المصلين إليها.. فهم يبنون ونحن نوفد المصلين، فيكمِّل بعضنا بعضا. وخرج عما يعلق بالقلوب من شر الوسواس والتباعد بين الناس.

نسأل الحق أن يثبِّتنا على الوجهة الصحيحة في فهم الشريعة، وأن يرزقنا الأدبَ معه ومع عباده من أجله وبالله التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والعشرون:

وجوب الاعتناء بالخاتمة

الحمد لله الملك الكريم، وصلى الله وسلَّم على عبده المصطفى ذي القدر الفخيم، وعلى آله وصحبه ومن تابعَه على صراطه المستقيم.

أما بعد: فإن من جملة ما يلزم الإنسانَ في الاستفادة من كنوز مملكة قلبه وأعضائه أن يكون على انتباهٍ من شؤون الخواتيم للأعمال، للأيام، للأسابيع، للأشهر، للسنوات.. يلمح بذلك فضلَ الله عليه في أن يُحسنَ له خاتمةَ العُمُر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**إنما الأعمال بخواتيمها**))[1].

اهتمام صالحي الأمة بطلب حسن الخاتمة

اهتم الأكياس من عقلاء الأمة من أرباب العلم والفضل بشأن الخاتمة كثيراً، وألحُّوا على الله في حسن الخاتمة، وبكَوا كثيراً من خوفِ سوء الخاتمة.. ومن تأمَّل تقليبَ القلوب وتحوُّلَ أحوال الإنسان، علم أنه لا يقوى على أن يختم عمرَه بشيء إلا أن يتفضَّل الله عليه بحسن الخاتمة، وإن كان يموت المرء غالباً على ما عاش عليه، أي على ما كان غالباً على قلبه ووجهته في ماضي أيامه، ولكن مع ذلك فإن مقلب القلوب يبدي لنا عجائبَ لنكون دائماً على أدبٍ معه، ولجوءٍ إليه، وسؤالِ لحسن الخاتمة؛ وإن الذي أُكرم بالانتباه من خاتمةِ يومه وليلته، وخاتمة أسبوعه

---

١) رواه البخاري في كتاب الرقاب- باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها (الحديث:٦١٢٨)

وشهرِه، وخاتمة عامِه، وخاتمة صلاته أو قراءته أو دعائه أو أي شيء من أعماله الأخرى حريٌّ بأن يجود اللهُ عليه بحسنِ خاتمةِ عمرِه، ويحسِّن حاله عند لقائه.

فمن هنا وجب صرفُ العناية إلى خواتيم الأعمال، وفي الحديث: «**إذا أوى الرجلُ إلى فراشه ابتدره ملكٌ وشيطان، فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشر**»[1]، فأيهما أصغى له غلَب عليه وأخذَه، فإما أن تُختم الصحيفة في اليوم والليلة بخير وإما أن تُختم بشر والعياذ بالله تعالى.

تأمل خواتيم أيامك قُبيل الغروب، وانظر إلى أمرِ الله بالتسبيح قبل الغروب تدرك نصيباً من معنى حسنِ الخاتمة.. وانظر إلى ثناء الله على المستغفرين بالأسحار تدرك معنى حسن ختم الليالي.

وأحسن خواتيمَ صلواتك فكن حاضرَ القلب منتبهاً في كل الصلاة وعند الخاتمة بعناية. وكذلك في القراءة وبقية الأعمال الصالحة.. وتأمل شهورك ومرورها وتحسين ختمها. وتأمل أن نبيَّك في مثل رمضان يجتهد أكثر في خاتمته.. ولكن ترى كثيراً من أهل الغفلة ربما اجتهدوا في أول الشهر فإذا جاءت خواتيمه جُعلت للأسواق والملاهي أو لإعداد الملابس التي يُتباهى بها في غفلةٍ عن أدب اللباس في الشريعة، فلا يحسنون خاتمة رمضان. وربما كان أحدهم في ليلة القدر وتمتد عينه إلى نظرة حرام أو يزلُّ لسانه بكلمة سوءٍ، أو يقوم بمنازعة أحدٍ أو

---

١) رواه النسائي في كتاب عمل اليوم والليلة- باب ما يقول إذا انتبه من منامه (الحديث: ١٠٦٨٩) وابن حبان.

مقاطعة أحدٍ من أرحامه أو أذى أحدٍ من جيرانه، فكم يفوته من الخير في الليلة التي قال عنها رسول الله: ((**مُن حرِمها فقد حرمَ الخير كله ولا يُحرم خيرُها إلا محروم**))[1]، فينبغي للإنسان أن يكون حسن الترقُّب لها، وأن يودِّع شهره هذا خاصة وبقية الأشهر عامة بتحقيق التوبة وتحقيق الانكسار لله، وتوسيع الهمة في إقامة أمرِ الله، والطمع فيما عند الله، والخوف من الله، والتحلِّي بآداب رسول الله والإتباع لهديه صلى الله عليه وسلم. فيخرج من الشهر بالعزيمة القوية والأخلاق النبوية، ويظهر عليه أثر ذلك بعد الشهر فيكون علامة القبول ويُهيَّأ لأن تُحسن له الخاتمة عند الموت وأن يُثبَّت ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

آداب تساعد على حسن الخاتمة

ندبَنا الشارع إلى آدابٍ تتعلق بالخاتمة فمنها ما يتعلق بزيارة المريض، وذلك بتوسيع رجائه في الله إن ظهر أنه أقرب إلى الانتقال من الدنيا؛ ومنها قراءة سورة يس عند الإحساس بخروج الروح؛ ومنها تلقين المحتضَر لا إله إلا الله دون إلحاحٍ ولا قول (قُل) خشيةً أن يتبرَّم فيُختَم له برفضها، وإذا رُئيت منه الإشارة أو سمعت منه العبارة بقول لا إله إلا الله فليتوقف إلا إذا تكلم بكلام أجنبي، ولا

---

١) رواه ابن ماجه في كتاب الصيام- باب ما جاء في فضل شهر رمضان (الحديث: ١٦٤٤)

تُترك في المنزل الذي يُحتَضر فيه صورةٌ مجسمةٌ ولا امرأةٌ مكشوفةُ الرأس، فإن ذلك مما يمنع دخولَ ملائكة الرحمة.. يُفعل كل ذلك تعرُّضاً لأن تكون الخاتمة حسنة.

وإنه لتعرضُ الفتن في المحاولات الأخيرة لعدوِّ الله لكل امرئٍ عند خروج روحه، وربما تصور له إبليس بصورة أحدٍ ممن مات قبله ممن يعرفهم فيُغويه ويقول: قد متُّ قبلك ووجدت أن أحسن الأديان دين النصرانية أو دين اليهودية أو غير ذلك.. فهل أنت عليه؟ فقد يجيبه بروحه أن نعم! فيموت على غير الملة والعياذ بالله.. أعاذنا الله من سوء الخاتمة.

التعلق بالذنوب من أسباب الموت على سوء الخاتمة

كثيراً ما تأتي للإنسان نتائج أعمالهم وخصوصاً التي استسهلوا بها من المعاصي في ساعة الاحتضار، وربما وقعت سبباً لسوء الخاتمة. كما قالوا للذي عجز عن النطق بـ لا إله إلا الله مع أنه يتكلم بالكلام الآخر عند الموت.. ما بالك!؟ فقال: منعتني عنها نظرة حرام لم أتب منها ولم أحزن عليها. فبتلك النظرة حيل بينه وبين لا إله إلا الله عند الموت.

وليس من الضروري أن يقول المسلم عند الموت لا إله إلا الله، فإن اعتقاده بها كافٍ لكن إن وُفِّق للنطق بها فكانت آخرَ ما خُتمت به صحائفه كان له ميزة في دخول الجنة بغير حساب لقوله صلى الله عليه وسلم: «**من كان آخر كلامه لا إله**

إلا الله دخل الجنة»[١] أي مع السابقين، فتكون الخصوصية لمن خُتِم عمرُه بهذه الكلمة الطيبة، التي ينبغي أن لا نغفل عنها وأن نكثر منها طوال حياتنا، وأن نتأمل معانيها، فإنها الموصلة إلى حقيقة التوحيد في المنازل العُلا من المعرفة بالملك الأعلى، فهي أفضل الكلمات وخيرها، وأفضل الذكر وأعظمه، ومهما أكثرَ الإنسان منها بحضور قلب أثمرت أنواراً في قلبه وتصفيةً للُبِّه وتنقيةً عن شؤم ذنبه لذا جاء في الحديث: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**»[٢]، وينبغي رفعُ الصوت بها في الأسواق، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة**»[٣] وبذلك تعلم الأرباح الكبيرة في المتعلقين بالكنوز التي جاءت بها الشريعة المطهرة، وبذلك أيضا يلتفت نظرك إلى اختيار أقوالٍ ترجو أن يختم لك بها.. فإنك ترى في حياة الناس أن من طرأ عليه غَياب حسِّه كالمجنون مثلاً فإنه يردد ما كان قلبه متعلقاً به قبل نزول ذلك الحادث به.. فكذلك الحال عند سكرة

---

١) رواه أبو داود في كتاب الجنائز- باب في التلقين (الحديث: ٣١١٦) والحاكم عن معاذ وقال صحيح الإسناد.

٢) رواه مالك في الموطأ كتاب الحج باب جامع الحج (الحديث: ٢٥٥).

٣) رواه الترمذي في أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما يقول إذا دخل السوق (الحديث: ٣٤٨٨)، والحاكم في المستدرك عن عمر بن الخطاب.

الموت، إنما يؤخذ قلبك إلى ما كان غالباً عليه من قبل.. فتجد الذي كان معلَّقاً بالسيارات لو جُنَّ يصبح بين الناس ينظر إلى السيارات ويمثِّل مشيَها.. ومن كان معلقاً بالصلاة أو عملِ خيرٍ رأيته بعد جنونه أيضاً مكرِّراً له وعاملاً به، فكذلك حالك عندما تفجعك سكرة الموت فما كان غالباً على قلبك تذكره وتذهب إليه.

فينبغي أن تلتفت منك الأنظار إلى موضوع الخواتيم فتُحسِن خواتيمَ الأشهر المارة بك وخواتيم أعمالك رجاء حُسن خاتمة عمرك، وبذلك تكون في نصيبٍ من الأمان من العُجُب، فإن الإنسان إذا تذكر خطرَ الخاتمة زال عنه العُجُب بعمله فإنه لا يدري بمَ يُختم له. وإن الإعظام لأمر الله من أقوى أسباب حُسن الخاتمة، كما أن الإضرار بالناس والتساهل بحقوقهم وإدعاء الإنسان ما ليس له خصوصاً من المعرفة بالدين ومعاني الإيمان من أقوى أسباب سوء الخاتمة عند الموت.

فكن يا أيها المؤمن مستفيداً من عمرك، واحذر كيدَ الشيطان بأن يغرك فتعجب ويُغفلك عن أمر الخاتمة التي غُيِّب أمرها لنكون على قدم الأدب والخشية من الله حتى نلقاه فيؤمِّننا ويرضى عنا رضاً لا سخط بعده. اللهم إنا نسألك التوفيق لما تحب وأن تُحسن لنا الخواتيم، اللهم أحسِن عاقبتَنا وخاتمتَنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والعشرون:

الكف عن المحرمات حقيقة التقوى وأساس النجاة

الحمد لله الملك الرحيم، الرقيب الحسيب الكريم، الجواد المنعم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كلَّ شيء عددا، أرسل إلينا نبيَّه محمداً بالهدى ودين الحق، فاهتدى به كلُّ ذي قلبٍ سليم، وثبَّتت به الأقدام على الصراط المستقيم، اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه وأهل حضرة اقترابه من أحبابه.

أما بعد: فإن المؤمن في عالم المملكة التي آتاه الله إياها من القلب والأعضاء يجب أن يدرك حقيقةً من الحقائق، وهي أن مسألة الكف عن المحارم هي النتيجة لصدقهِ في العبادة واستعمالِهِ القلب والأعضاء في الطاعة، وأنها العلامة لتحقيق الإيمان، وأنها الوسيلة للفوز من الله بالرضوان؛ فمسألة الكف عن المحرمات هي التي يقوم بها التمييز بين الصادق وسواه.. بين المنيب الخاشع الخاضع وسواه. ولما دار البحث بين بعض أكابر الأمة في زمن التابعين أو تابعي التابعين، أي الأعمال الصالحة أفضل!؟ فأخذوا يذكرون أنواعاً من العبادات حتى قال بعضهم: أفضل العبادات ترك المعاصي فقالوا: تم الأمر تم الأمر، أفضل الطاعات ترك المعاصي.

من المهمات حفظُ الفم والفرج

يتعرض الإنسان للتركِ والكفِّ بالقلب والجوارحِ عن أصنافٍ من المُحرَّماتِ حرَّمها الله على القلب من كبرٍ وعُجْبٍ ورياءٍ وغرور وحسدٍ وحقدٍ وغيرها من معاصي القلب، وعلى كل عضو من الأعضاء. إلا أنه يتميز من بين الأعضاء

عضوان لضبطِها وأخذِهما على مسار الجادة تتحقق العبادة، وتحصل السعادة، ويُهيَّأ الإنسان للحُسنى وزيادة.. وذلك ما جاءنا في الحديث عن المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم: وقد سُئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار فقال: ((**الأجوفان: الفم والفرج**))[1] فيتميز هذان العضوان بالأثر القوي البالغ في إرسالهما فيما حرم الله موصلاً إلى الشقاء وموجباً للعذاب، وفي كفِّهما عما حرم الله سبباً للسعادة وأصلاً في حيازة الاقتراب وعظيم الثواب.

فينبغي للمؤمن أن يلاحظ نصيبَه من الطاقة الإيمانية التي يؤتاها في حُسن الكفِّ في لسانه وفرجه.. والفم يحوي اللسان فيأتي إليه أمران: أمرُ الكلام والتلفُّظات، وأمر المطعومات والمشروبات.

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى أوصافَ عباده المؤمنين ورثةَ الفردوس فجعل يقول عنهم: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٥-٧) وقد سماهم عادِّين أي متعدِّين للحدود متجاوزين لها خارجين عن طور إنسانيَّتهم وشريعتهم وأدبهم مع خالقهم، وفي هذا مظهر من مظاهر التهذيب التي تتصل بحماية القيَم وحقيقة الكرامة، وبارتقاء الإنسان عن أن يُؤخذ بالملذات القصيرة الوقتيَّة الآنيَّة الحقيرة عن حقيقة كرامته وشريف منزلته وعظيم قيَمِهِ وخطر مصيره وعن الملك المقيم والنعيم الدائم.

---

١) رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة، وقال صحيح الإسناد.

على أنه يجري في هذا الجانب تجنيدُ الجنود من قِبل إبليس وأعداء الإنسانية والكرامة والفضيلة لحشدِ أولئك الجنود في استبعاثِ واستثارة الشهوات المحرمات بالوسائل المختلفات، لا يخدمون بذلك مجتمعاً ولا إنسانيةً ولكنهم عُداتُها والمحاربون لكرامتها.

الإحسان في الكفِّ عن المحرمات

إن الميزة التي يتحقَّق بها التقيُّ هي الكف عن المحرمات؛ لذلك يجب أن يخرج الإنسان من حصيلةِ عباداته، ومن مثل صيامه لرمضان وقيامه فيه، ومن اتصاله بالقراءات أو الصدقات أو العمرة أو الحج إلى غير ذلك إلى استقامة القدم في أمرِ هذا الكفِّ وإحسانه، فكما أن الإنسانَ يُطالَب بإحسان العملِ فكذلك يُطالب بإحسان الترك والانتهاء والابتعاد، فيُحسِن في كفِّه عن المحرمات وابتعاده منها.

وفيما يتعلق بما نحن بصدده من حفظِ الفروج التي يترتب على حفظِها النجاةُ من الخزي الذي يخزي اللهُ به الذين استرسلوا في عملِ الشهوات دون مبالاةٍ إيثاراً للذَّةٍ عاجلةٍ اختبرهم بها جبار السماوات والأرض مِن حشرِهم متلاصقين لفروجهم، تشتعل وجوههم ناراً فضيحةً لهم أمام الأشهاد، ثم تعليقُهم في النار يسيل من فروجهم القيح والصديد.. إلى غير ذلك مما جاءنا في الخبر عن المؤتمن على أنباء ربنا الأكبر سبحانه وتعالى[1].

---

(١) أوردها الإمام محمد بن أحمد الذهبي في كتاب: الكبائر.. عند حديثه عن الزنا.

النهي عن مقدمات الحرام

يتصل بإحسان الكفِّ عن الحرام الحمايةُ من مقدماته، وفيما يتعلق بحفظِ الفرج جاء الأمر بالكف عن مقدماته، مثل النظر، وذلك فيما خُصَّ به دون سواه من بقية الأعمال، فإن بداية الإدراك بسبب النظر والاسترسال في الفكر الذي يهيِّج الرغبة في الفعل، قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ...﴾ (النور: ٣٠-٣١) إلى آخر الآية.. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: ((**النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، يقول الله من تركها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوتَه في قلبه**))[١] فيتنجَّز له الجزاء والأثر عاجلاً، ويكون له مذخوراً من الجزاء أمراً عظيماً كريماً هائلاً.

ثم للوقوع في الفعل ثلاث مراحل يصعبُ انفكاك بعضها عن بعض، على أنه يجوز لنا أن ننظر إلى عمائر الناس، وإلى حدائقهم، وإلى مختلف أموالهم، من سيارات أو ثياب أو غير ذلك، ولم يشرع الحق لنا غضَّ البصر كما شرعه في جانب المُثيرات لشهوة الفرج، كما أن الرغبة في تحصيل مثل ذلك من أمثلة الأموال جائز، لكن امتداد اليد لأن تأخذَ حق الغيرِ محرم؛ لكن يصعب فصلُ المراحل الثلاث في

١) رواه الحاكم وصححه من حديث حذيفة، والطبراني عن ابن مسعود.

قضية هذه الشهوة الجنسية، فلذلك جاءت الأوامر الإلهية للبشر صيانةً وحمايةً وتهذيباً وارتقاءً واعتلاءً بهم وسموًّا بسدِّ الباب من أوله.. فحُرِّم النظر، بل عدَّ صلى الله عليه وسلم أن للعين زنا، وللسان زنا، وللقلب زنا[١]، وكل تلك مقدماتٌ، وبحفظِ الأعضاء من شرورها يُحفظ الفرج من الوقوع في الكبائر، ويؤثر النظر على القلب ويزرع الشهوةَ والفتنة.

كما يؤثر الفكر بعد ذلك في شؤون تلك الشهوات، فينبغي أن يسمو الإنسان بفكرِه كلما خطر عليه خاطر فيصرفه بالذكر والفكر في المصير والعاقبة والنهاية والوقوف بين يدي من يحاسبك وهو الأقدر عليك الأعلم بك المحيط بكلِّ شيء علما جل جلاله، وكيف ستكون حالتك إذا سألك لِم التفتَّ؟ ولم نظرتَ؟ فكيف بما وراء ذلك؟ إلى جانب ذلك الفكر.. قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

والثالثة: الكلام في تلك الشهوات المحرمات والخوض فيها، فإنه زنا اللسان كما أخبر صلى الله عليه وسلم في الحديث: ((**وزنا اللسان المنطق**))[٢]، فإذا صدق الإنسانُ في حفظِ العين عن النظر، واللسان عن الكلام، والقلب عن الفكر،

١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة : (العين تزني والقلب يزني ، فزنا العين النظر، وزنا القلب التمني)

٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان-باب: زنا الجوارح دون الفرج (الحديث: ٥٨٨٩)، ومسلم في كتاب القدر- باب: قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره (الحديث: ٢٦٧٥)

والبطن عن كثرة الشبع، كان أجدرَ بأن يكون محفوظاً في جانب هذه القضية، سليماً من آفاتها الكثيرة التي هي محطُّ الاتجاه عند كثيرٍ من الذين يريدون الفسادَ في الأرض، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٦-٢٧]، ففيه بيانٌ إلهي يبيِّن حقيقةَ كثيرٍ مما يزاوله الناس في حياتهم أمام المغريات والمثيرات والوسائل المؤدية إلى الحرام من الأشكال والأزياء.. كل ذلك جاء به البيان الإلهي لنحذرَ ولنكون على بصيرة، ولنأخذ ما ينفع وندع ما يضر ونكون بذلك من المتقين.. وقد سُئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: ((**تقوى الله وحسن الخلق**))[١].

اللهم ارزقنا حقيقةَ التقوى، وحسنَ الأخلاق، وجنِّبنا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، واجعلنا من الصادقين، ولا تعرِّضنا لعذابٍ ولا فتنةٍ يا رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم..

والحمد لله رب العالمين .

---

١) رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة، وقال صحيح الإسناد.

الدرس التاسع والعشرون:

مكانة النية والعزيمة

الحمد لله الملك الكريم، العظيم الرحيم، نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون.

أما بعد: فإن للإنسان في عالم قلبِه وجوارحه تعلُّم مكانِة ومنزلِةِ القصدِ والإرادةِ والنية والعزم، فكم لتقويم القصد عند الإنسان والعزيمة من آثار حميدات، وفوائد كثيرات، ومنافع جليلات.. دنيويات وأخرويات.

وكم للنيات السيئات والعزم على المخالفات من آثار شنيعات، وتعرُّضٍ للآفات في الظاهر والباطن، وتعرُّضٍ لغضبِ الجبار ولعذاب النار وغير ذلك من الشدائد والأهوال في الدنيا والمآل.

من علامات الصحة والقبول في العبادة التي يَعبد اللهَ بها، صلاةً أو قراءةً أو صوماً أو حجًّا أو عمرةً أن يأتي لدى قلبه في نهاية عملِه عزمٌ صادقٌ على فعلِ الطاعات، والانطلاق في النافعات والمفيدات، واكتساب الحسنات، وتصميمٌ بالغ على اجتناب السيئات والمخالفات. ولأثر هذه النيات كان يقول صلحاء الأمة من القرون الأولى: من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله له سبعين باباً من أبواب

التوفيق، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من أبواب الخذلان.. والعياذ بالله تبارك وتعالى.

فكم أثَّرت النيات! وكم أثرت العزائم! وكم كان من انفعالاتٍ لعزيمة الإنسان في مختلف شؤونه وأحواله، وإذا صمَّم على أمرٍ وعزمَ عليه فبُقوَّةِ وِجهتِه تبدو عجائب كثيرة وتتحقق شؤون كثيرة، وكذلك إذا انحطت به الهمة ونوى السوء كم ينحدر إلى الأسواء وكم تتسارع إليه الظلمات والقاطعات والسيئات.

مقومات حسن النية وقوة العزيمة

يجب على المؤمن أن يتعلم حسنَ النية وقوةَ العزيمة وصدقَ الوجهة فيما يريد، وبذلك جاءتنا المقوِّمات والأسباب التي تدعو إلى تثبيت تلك العزائم من خلال ما شُرع لنا من أعمالٍ وأدعيةٍ وقراءاتٍ، وفي كل صلاة نتوجه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وفي هذا بعثٌ لهِمَّة الذي يقرأ الدعاء بحضور قلبٍ إلى أن يعزم على اتباع ومشابهةِ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يكون على مقرُبةٍ في الاقتداء بهم والتشبُّه بهم والأخذ لأوصافهم وأحوالهم، كما يكون على حذرٍ من شرور المغضوب عليهم والضالين من مختلف فئات الفاجرين والكافرين الذين يعيشون معه على ظهر الأرض، فيتميز في الخُلق والوجهة والنية بمقتضى الشرع الإلهي والمنهج الرباني، فذلك سموٌّ وعلوٌّ يرتفع به عن حضيض

ما ينحطُّ فيه أولئك من تتبُّع الشهوات وإيثار العاجلات، ومن تضييع القيم الساميات. ففي كل ذلك يتعلم المؤمن تصحيحَ العزم وتصحيحَ النية، ويقول ابن رسلان الشافعي مشيراً إلى معنى حديث: ((**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**))[١]: فصحِّح النيةَ قبل العمل ..

توسيع النية وإخلاصها لله

يقول صلى الله عليه وسلم: ((**نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله**))[٢] وذلك أنه لا يُداخل النيةَ الصادقةَ شيءٌ من الرياء والعجب غالباً، بينما يتعرض العمل إذا قام به لشيءٍ من تلك المثالب والقوادح التي ربما أحبطَت عليه الثواب..فهذا أمر.

والأمر الثاني: مهما صحت هذه النية فإن الله تعالى يثيبه عليها ثواباً عظيماً كبيراً لا يساويه ثوابُ نفس العمل.

والمعنى الثالث: أن المؤمن تعظمُ نيتُه وتتَّسع، فهو ينوي ما لا يقدر على عمله متمنِّياً أن يعمله لو تمكَّن واستطاع، فمهما أحسن ومهما أعطى ومهما قام بالوفاء بالعهد ومهما أحسنَ الجوار ومهما واصلَ الأرحام ومهما أعانَ ملهوفاً أو فرَّج على مكروب، فجميع أعماله تلك تقصرُ دون نيته، فهو ينوي ويريد أن يعمل أكثر من ذلك وأعظم من ذلك وأفضل من ذلك، فهو يعمل المستطاعَ له، ونيته أكبر من

---

١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث: ١)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب: قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنية (الحديث: ١٩٠٧).

٢) رواه الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد.

ذلك؛ بخلاف المنافق فإنه مهما صدر على ظاهر أعضائه من فعلِ خيرٍ فنيَّتُه سيئة لا يودُّ أن يفعل ذلك، وليس له فيه مقصدٌ حسن، لكن المؤمن دائماً نيته خيرٌ من عمله.. فعملُه خير ولكن نيته خيرٌ من ذلك العمل، وأعظم من ذلك العمل، فهو يعمل بقدر المستطاع ونيتُه أوسع لما وقرَ في قلبه من قصدِ وجهِ ربه، ومن أن الفوز في المبادرة إلى ما شرع له من العمل الصالح والدخول في دائرة المتجر الرابح.

وهذا يجعل المؤمنَ في عزائمه ووجهاته على ملاحظةٍ حسنةٍ وعلى تقويةٍ وعلى توسيعٍ لنطاق هذه النية وعلى بحثٍ عن تنقيتها عن الشوائب وإخلاصها لوجه الله تبارك وتعالى.. وبهذا تظهر آثار القبول للطاعات والعبادات والخروج من المواسم الطيبات الصالحات، ويتهيأ الإنسان لأن يكون في عيدٍ أبدا، وذلك أن كل يوم ثبتَ فيه القدم على منهج الله الأقوم، فقد أُكرم صاحبه بنعمةٍ هي له عيد وأي عيد، وفي ذلك جاء عن سيدنا علي بن أبي طالب وقد هُنئ بالعيد: اليوم عيد وأمس عيد وغداً إن شاء الله عيد، وكل يوم لا نعصي اللهَ فيه فهو عيد، لأنه موجبٌ للمزيد ومقدِّمٌ إلى مثوبات القرب من العزيز الحميد؛ وبتلك العزائم الصادقات تنفتح أبواب التوفيق وتتسارع الرحمة إلى صاحب تلك النية.

فلا تبخل على نفسك بتوسيعِ نيتَّك وتقويتِها في فعلِ الصالحات في عموم شؤونك وأحوالك، وخصِّص وفصِّل منها ما أنت بصدده مما تقدر عليه، ومما تزاوله، ومما هو محيطٌ بك.. سواءً فيما يتعلق بذاتك وشخصك، وما يتعلق بشأنك

مع أسرتك وولدك، وما يتعلق بشأن مجتمعك الذي تعيش فيه، ومَن تتعامل معهم في الوظيفة أو المرفَق أو العمل ومختلف الشؤون، فإنك بذلك تحرز كنزاً من كنوز الفضل الإلهي بسبب صدقِ نيتك وإخلاصك في قصدِك لوجه الله تعالى، وهي حليةٌ ولباسٌ يفتخر به المؤمن لا يُنزع عنه عند الموت ويبقى معه إلى يوم الميقات؛ أما ما يتزين به من الزينة الظاهرة فمهما كان لباساً فاخراً وما سواه فلابد أن يُنزع عنه، ولكن كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

بركة الأعمال في النيات

وقد فتح الله لنا أبواب هذه النيات، فصار الواحد منا يقدر في العمل الصالح أن يعدِّد النياتِ الصالحة فيتضاعف بذلك أجرُه، وفي هذا قالوا: إنما زكت أعمال الصديقين بنيَّاتهم. بسبب سعة النيَّات وكثرة النيات، فلهم في دخولهم وخروجهم نياتٌ صالحات.. فيمن يلاقون في الطريق، فيما يبدأون به من السلام، وفي المبادرة إلى المصافحة التي يذهب بها الغل، وفي تلاوة الكتاب العزيز استخراجاً للعلوم الكريمة، واستمطاراً للرحمة العظيمة، وتنقيةً للقلب عن الشوائب، وغوصاً على المعاني والعجائب، وإدراكاً لسرِّ التوجيه، ومزجاً للقلب والجسد بالكتاب وأمثلته وإرشاداته وما فيه من توجيه وتنبيه.. إلى غير ذلك من النيات التي تجتمع في مثل قراءة القرآن، فإذا كان مع حلقةٍ أضيفت لها نياتُ إسماع الغير للآيات، والتعرُّض لرحمة الله تعالى بإيراد المعنى الذي ينزل على قلبه وينزل على قلوب من يسمعه

ليكون ذلك سببًا في تقوية إدراك المعاني وحلولها في القلوب، وأن يُذكَر في العالم الأعلى كما وعد الحق تبارك وتعالى، وأن ينال من أن تتغشَّاه الرحمة وتنزل عليه السكينة وتحفُّ به الملائكة نصيباً من الرقةِ والتنقيةِ للقلب والضمير، والقربِ من العلي الكبير سبحانه وتعالى.. وهكذا.

حتى يأتي الإنسان إلى العادات وإلى المباحات فتؤثر فيها النيات.. فالنية تؤثر في المباحات فتردُّها إلى طاعات، كما أنها تقدح في الطاعات إذا فسدت تعرِّض صاحبها إلى حبط الثواب أو الوقوع في العقاب؛ ولا تؤثر في المحرمات شيئاً لأن ما كان نجسَ العين لا يطهر بالغسل، فمن أراد أن يطهِّر نجاسةً عينيَّةً بتغسيلها فلا تطهر، فكذلك لا تؤثر النية فيما حرم الله على الإنسان شيئاً، وبكل ذلك تعلم ما فتح لك من الباب الواسع في تحسينِ نيتك فلا تبخل على نفسك، واستقبل عمرك وكل يوم من أيامك وكل ليلة من لياليك بنياتٍ صالحةٍ وعزيمة صادقة في الاستقامة وفعلِ الخير والابتعاد عن الشر والكف عنه تُوفَّق وتُعان وتُسدَّد.

اللهم يا مَن وفَّق أهلَ الخير للخير وأعانهم عليه وفِّقنا للخير وأعنَّا عليه برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثلاثون:

النظر إلى العيد ومعانيه

الحمد لله حمداً تنشرح به الصدور، وصلى الله وسلم على عبده المصطفى الهادي سيدنا محمدٍ البرِّ الشكور، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان من كل ذي قلبٍ معمور.

أما بعد: فإن نظرة أهل الإيمان في هذه المملكة الواسعة للقلب والأعضاء إلى معنى الأعياد وتحصيل الفوائد والإمداد من حضرة الملك الجواد نظرةٌ عميقةٌ ودقيقةٌ وواسعة لمن انصبغ بصبغة الله ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] وقد أسلفنا ذكرَ الأثرِ عن سيدنا علي بن أبي طالب في قوله: كل يوم لا نعصِي الله فهو عيد.

ومن هنا يأتي النظر إلى الأعياد نظرَ اتصالٍ بالمعاد، فنجد أن اليومين الأصليين الرئيسين للأعياد هما يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى في الشريعة المطهرة، وخُصَّا بخصوصياتٍ وميزاتٍ منها: سنيَّة إشهار التكبير وإعلانه في ليلة العيد، وتعلق ذلك بالصلوات بالنسبة لعيد الأضحى. قال تعالى: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أي عدة رمضان ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فجُعل شعار العيد التكبير تقويةً لهذا المعنى اللطيف الغزير في إعظام الله العلي الكبير جل جلاله،

وانتزاع ما يحجب عن ذلك من كل القواطع التي تقطع الإنسان عن إدراك عظمة صلتِه بالله، وتحمله على حسن الاستعداد لمقابلته والمصير إليه تبارك وتعالى.

حسن النظر في معنى العيد

جُعل شعار العيد التكبير، ونُدبنا في عيد الفطر والأضحى إلى صلاةٍ مخصوصة، ويذكر بعض المفسرين من جملة الأقوال في معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي أخرج زكاة الفطر ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ ﴾ بالتكبير ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥] صلاة العيد، وكذلك في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢] أنها صلاة عيد الأضحى ونحرُ الأضحية.. وهذا من جملة المعاني والأقوال عند المفسرين.

هذه النظرة إلى الأعياد بما قد أشرنا به سابقاً في قول عيسى بن مريم ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ [المائدة: ١١٤] تبيّن لنا حقيقةَ العيد عند المؤمن، وفي ذلك كان يقول حكماؤهم: ليس العيد لمن لبس الجديد، لكن العيد لمن طاعته تزيد. ليس العيد لمن تجمَّل بالملبوس والمركوب إنما العيد لمن غُفرت له الذنوب.

وبذلك تعلم أن المؤمن يتهيأ لحيازةِ أنواعٍ من الأعياد بواسعٍ من الإمداد من حضرة ربه، فيتوالى عليه الفرحُ بفائض فضل الله عليه بما يتعرض له من ذلك الفضل بواسطة العمل والبذل والعطاء والتضحية واغتنام الأوقات والساعات ومرور الزمان به، حتى يتعرض بعد ذلك لعيدٍ أكبر - وهو يوم لقاء الله والله

راضٍ عنه، يبشره برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ فيها نعيم مقيم- بالموت على حسن الخاتمة والمحبة للقاء الله ومحبة الله للقائه، هذا عيدٌ أكبر وعطاء من الله أعظم وأغمر، يجتمع فيه نتائج كل ما صح أنه عيد على الميزان والنظر الإيماني. والميزان الإيماني ليس التجمُّل بشيء من المظاهر والزخارف ولكن بإدراك موجبات رضا الذي بيده الأمر، وتحقيق وصلةٍ بين هذا الإنسان وبين عالم السر والجهر، يسعد بها في الدنيا والقبر، ويوم الحشر، ويرافق بها أصفياءَ الحق الذين قرَّبهم إليه زُلفى.

الأعياد التي تتوالى على المؤمن بعد موته

إذا أُكرِم الإنسان بعيدِ حسنِ الخاتمة فالأعيادُ متواليةٌ غير متناهية بعد ذلك، فيقابَل روحُه بالروح والريحان حتى إذا احتمله الناس لوضعِه في القبر نادت جنازته: قدِّموني قدموني إلى جنةٍ ورضوان وربٍّ غير غضبان، كما أن الأمر يكون شديداً على الذي لم يدرك الحسنَ عند الخاتمة ولم يثبُت له القدم عند الملاقاة والمواجهة، فتنادي جنازته: يا ويلها أين تذهبون بها[1]؟

ثم بعد ذلك التثبيت عند السؤال في القبر، وبعد ذلك كما ثبت في الحديث الشريف أنه أوحي إليه صلى الله عليه وسلم عن فتنة الناس في القبور ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ثم بعد

---

١) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا وُضعت الجنازة، فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها، أين يذهبون بها، يسمع صوتَها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق).

ذلك ما يكون في يوم البعث والنشور ومع أي زمرة يُحشر!؟ فمهما كان مع فئات الصلاح والفلاح من الآمنين من عذاب الله كان في عيد، وفي الاستظلال بظل لواء الحمد عيد، وفي رجاحة ميزان الحسنات عيد، وفي أخذِ الكتاب باليمين عيد، وفي حُسن العطف واللطف من حضرة الله عند العرض عليه عيد، وأي عيد يُنادى بعده: لقد سعد فلان بن فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدا. وفي ثبات قدمِه عند المرور على الصراط وسرعةِ مروره عليه عيد، وفي رؤيته الجنة وما أعد الله مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر عيد، وفي دخوله الجنة وراء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عيد، وهو القائل: ((**وأنا أولُ مَن يُحَرِّكُ حِلَقَ الجنةِ فيفتحُ الله لي فيُدخِلُنيهَا ومعي فُقراءُ المؤمنين ولا فخر**))[1].

ثم بعد ذلك يُكرمون بالمزيد من حضرة الله، قال تعالى: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥] وأنواع ذلك النعيم الذي لا يُحصى، والنظر إلى وجهه الكريم جل وعلا، والعطاء الأوفى من حضرته سبحانه وتعالى، كل ذلك عيدٌ وأيُّ عيد، ولا يزال العبد في مزيدٍ وفي جودٍ من الحميد المجيد يبادره في كل يوم بما لم يخطر على باله، وفي كل ساعة بما لم يكن في خياله، فانظر إلى حقيقة هذه الأعياد أين هي عند من لم يعرف معنى العيد إلا أن يتذكر حادثةً من حوادث العمر القصير، ثم يكاد بعد ذلك في تعبيره أن يطير بشيء من الحركات أو بشيء من التعبيرات، ثم

---

١) رواه الترمذي في أبواب المناقب عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم (الحديث: ٣٦٩٥).

ينقطع كل ذلك عن الخلد والدوام والبقاء، بل وعن حالته عند الموت وما بعد ذلك، فكم الفارق الكبير بين النظر إلى الأعياد هنا وهناك، تعلم بذلك أن الشريعة أوقفَت أقدام مُتَّبِعيها على مسلكٍ رفيعٍ شريفٍ كريمٍ وسيعٍ ليس لغيرهم ممن لم يصدق في الإيمان ولم يتصل بالرحمن جل جلاله.

سمو المؤمن بحسن نظرته

إن هذه النظرة إلى معاني العيد مما يختص به أهل التوحيد وأهل القرب من الحميد المجيد وأهل الإتباع للمنهج الرشيد وراء صفوةِ الله من العبيد محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، يمتلئون بمعانٍ من الشوق للقاء الله وإلى رؤية سيدنا محمد بن عبد الله، في البرزخ وفي الجنة وفي يوم الحشر، وللاستظلال بظل لوائه والورود على حوضه المورود، وهذه الأشواق القلبية خصوصياتٌ ومزايا لأهل المراتب العلية وأهل بضاعة الإيمان الغالية الرفيعة السنية، لا يجدها منافق ولا كافر، ولكنها أشواقٌ قدسية طاهرة عُلوية يختص اللهُ بها من شاء من البرية، يدرك بها سرَّ ما كان يردد سيدنا بلال عند وفاته وقد أحسَّت زوجته بموته فقالت: واحزناه، ففتح عينيه وهو في سكرات الموت يقول لها: بل واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبَه. فما أعجب هذا الشوق الذي يرفع حالَ الإنسان إلى فوق، والذي يجعله على نظرةٍ بديعة غريبةٍ في إدراك شأن الحياة والوفاة وامتداد نظرِه إلى ما بعد الوفاة.

ذلك ما يكون في يوم البعث والنشور ومع أي زمرة يُحشر!؟ فمهما كان مع فئات الصلاح والفلاح من الآمنين من عذاب الله كان في عيد، وفي الاستظلال بظل لواء الحمد عيد، وفي رجاحة ميزان الحسنات عيد، وفي أخذِ الكتاب باليمين عيد، وفي حُسن العطف واللطف من حضرة الله عند العرض عليه عيد، وأي عيد يُنادى بعده: لقد سعد فلان بن فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدا. وفي ثبات قدمِه عند المرور على الصراط وسرعةِ مروره عليه عيد، وفي رؤيته الجنة وما أعد الله مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر عيد، وفي دخوله الجنة وراء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عيد، وهو القائل: « **وأنا أولُ مَن يُحَرِّكُ حِلَقَ الجنةِ فيفتحُ الله لي فيُدخِلُنيها ومعي فُقراءُ المؤمنين ولا فخر** »[1].

ثم بعد ذلك يُكرمون بالمزيد من حضرة الله، قال تعالى: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥] وأنواع ذلك النعيم الذي لا يُحصى، والنظر إلى وجهه الكريم جل وعلا، والعطاء الأوفى من حضرته سبحانه وتعالى، كل ذلك عيدٌ وأيُّ عيد، ولا يزال العبد في مزيدٍ وفي جودٍ من الحميد المجيد يبادره في كل يوم بما لم يخطر على باله، وفي كل ساعة بما لم يكن في خياله، فانظر إلى حقيقة هذه الأعياد أين هي عند من لم يعرف معنى العيد إلا أن يتذكر حادثةً من حوادث العمر القصير، ثم يكاد بعد ذلك في تعبيره أن يطير بشيء من الحركات أو بشيء من التعبيرات، ثم

---

١) رواه الترمذي في أبواب المناقِب عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم (الحديث: ٣٦٩٥).

ينقطع كل ذلك عن الخلد والدوام والبقاء، بل وعن حالته عند الموت وما بعد ذلك، فكم الفارق الكبير بين النظر إلى الأعياد هنا وهناك، تعلم بذلك أن الشريعة أوقفَت أقدام مُتَّبِعيها على مسلكٍ رفيعٍ شريفٍ كريمٍ وسيعٍ ليس لغيرهم ممن لم يصدق في الإيمان ولم يتصل بالرحمن جل جلاله.

سمو المؤمن بحسن نظرته

إن هذه النظرة إلى معاني العيد مما يختص به أهل التوحيد وأهل القرب من الحميد المجيد وأهل الإتباع للمنهج الرشيد وراء صفوةِ الله من العبيد محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، يمتلئون بمعانٍ من الشوق للقاء الله وإلى رؤية سيدنا محمد بن عبد الله، في البرزخ وفي الجنة وفي يوم الحشر، وللاستظلال بظل لوائه والورود على حوضه المورود، وهذه الأشواق القلبية خصوصياتٌ ومزايا لأهل المراتب العلية وأهل بضاعة الإيمان الغالية الرفيعة السنية، لا يجدها منافق ولا كافر، ولكنها أشواقٌ قدسية طاهرة عُلوية يختص اللهُ بها من شاء من البرية، يدرك بها سرَّ ما كان يردد سيدنا بلال عند وفاته وقد أحسَّت زوجته بموته فقالت: واحزناه، ففتح عينيه وهو في سكرات الموت يقول لها: بل واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبَه. فما أعجب هذا الشوق الذي يرفع حالَ الإنسان إلى فوق، والذي يجعله على نظرةٍ بديعة غريبةٍ في إدراك شأن الحياة والوفاة وامتداد نظرِه إلى ما بعد الوفاة.

فيجب أن نأخذ النصيبَ الأوفر من تقويم النظر في شأن هذه الأعياد التي تنازلُنا في الدنيا وتتصل بشأن المعاد، حتى نكونَ على تأهُّلٍ لواسعِ الإمداد من حضرة الملك الجواد، وحتى نسارعَ إلى فعلٍ ما يوجب الإسعاد، وما يقتضي حيازةَ الخير في التناد، وما يُنقَّى به القلبُ والفؤاد.

عسى الحق أن يجعل أيامنا وليالينا أعياداً في التقرب منه، وفي الرضا منه، وفي العمل بطاعته، وفي الزيادة من الحسنات، وفي تكفير الذنوب والسيئات حتى يُفضي بنا ذلك إلى عيدِ لقاء الله وهو راضٍ عنا إلى عيد حسنِ الخاتمة، إلى الموت على الإيمان والإسلام.

ألا أيها المؤمن ما أعجب ما أوتيتَ في شأن هذا القلب والأعضاء.

ألا إنه يحق لك أن تُحسن المعاملة لتحسُن لك المقابلة وتتحصل على شريف المواصلة من حضرة الوهاب رب الأرباب حتى يُدخلك الجنةَ مع الأحباب، أدخلنا الله جنتَه بغير حساب. اللهم ثبِّتنا وارزقنا الاستقامة، وأتحِفنا بالكرامة، وامنَحنا الرضوان، وعامِلنا بما أنت أهلُه يا كريم يا منان.

وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

المحتـــــــــــــــوى

بين يدي الكتاب:

خصوصية الإنسان هي تهيُّؤه لمعرفة الله التي لا تكون بشيء من الجوارح، وإنما بالقلب المُتَهَيّء للعزّ والفخر الأكبر بظفره بمعرفة الله ، وبهذه الخاصية اكتسبَت أعضاؤه في تصرُّفاتها منزلةً خاصةً ومكانةً رفيعةً..

لذلك وجب على الإنسان أن يعلم أن ما يقابلُه من جميع تصرفاتِ الأعضاء وتفاعلها مع الأحداث منوطٌ بشأن موقعِها من القلب الذي هو محلُّ نظر الحق عز وجل..

فشأن مملكةِ القلب مع الأعضاء والجوارحِ عظيمٌ يترتب عليه حيازةُ المُلك العظيم الدائم أو فقدانُه..

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلُح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَت فسد الجسدُ كله؛ ألا وهي القلب)).

متفق عليه.

